

www.kotobarabia.com
رواية
عواض شاهر العصيمي
أكثر من صواة وعود كبريت

أكثر من صورة وعود كبريت

رواية

عواض شاهر العصيمي

بدأت : الأربعاء (٦ نوفمبر ٢٠٠٢)

الساعة التاسعة مساءً.

مدينة الطائف.

" كانوا يقولون أنني أتجنب الصعاب من الأمور، وأؤثر بسهولة في النظارة، حيث أبرز حيزًا معينًا بصورة أقرب إلى الرسم الكاريكاتوري.. الشطر الأول ليس بصحيح، والثاني صحيح جزئيًا.. إنني لم أكن أتجنب الأمور الصعبة، إنما كنت أوجد لها حلولاً، بكل أمانة. وعندما أوجد لها تلك الحلول، كنت أنسجها وأرصها في ذلك الحيز "المبرز". عليك أن تلاحظ أن كل صورة تشتمل دائمًا على حيز واحد فقط يستحضر رؤيا الواقع، واقع الناظر، إن هذا الحيز فحسب، هو الحيز الهام والحاسم، شأن التوقيع على سند. وقد يقتصر هذا الحيز على العينين أو على يد أو على زر معدني بسيط مضاء بطريقة خاصة"

مقطع من "حديث مع غويا"

للكاتب البوسني إيفو اندريت

".. إن الممثلين والرسامين – الذين يتكون جمهورهم من عدد أقل – ينظرون أيضًا إلى رءوسنا ووجوهنا ببصيرة نافذة. إنهم يصنفون أنفسهم على أنهم سفسطائيون أكثر ذكاء، وأنهم متعلمون بشكل أفضل من المصورين، وأنهم استوعبوا قدرًا كبيرًا من علم نفس القرن العشرين. وأن أعمالهم الفنية غنية أو مكونة من أفكار مليئة بالنوايا التشخيصية. فهل تريد أن تعرف إن كان موضوعنا مليئًا بالعنف النرجسي؟ أو إذا ما كانت هي الحقيقة، الوجه الإنساني، وليس قناعًا أيديولوجيًا زائفًا؟

إن الصورة تختزلنا إلى بعدين، وتجعلنا صغارًا بما يكفي لتمثيلنا على قطعة من الورق أو إطار فيلم، فقد تم تدريبنا على أن نرى العالم الخارجي الذي تراه الكاميرا، فنحن ننظر إلى ولا ننظر داخل، كما قال أحد الفلاسفة، ونحن لا نسمح لأنفسنا أن ننجرف إلى ما نراه، فقد تم ترويضنا على رؤية الخارج فقط، ونحن نكمل الباقي، نصل إلى تحقيق ذلك باستعمال الخيال.

إن ما تريه لنا الصور الفوتوغرافيـــة هـــو المظهـــر الخارجي للأشياء أو الموجودات في العالم الحقيقـــي، وهـــذا مجرد جزء من الحقيقة. إن ذلك مجرد عادة قبل كل شيء."

سول بيلو

كاتب وأديب أمريكي

(١)

....

في البلدة، الشوارع الخلفية الصغيرة، ترسم وتتشقلب بالدراجات وبالمفرقعات تلعب، تصير طورًا شهبًا وأصابع ناحلة تخربش في الفضاء، وتصير بذيئة بعدد الكلمات التي على جدرانها طورًا آخر، لكنها في كل الأوقات تظل الشوارع الصغيرة التي تعلق على كل باب صافرة لشد انتباه الأولاد . تنسى أنها أيضًا شوارع للكبار، وتنسى رجاحة العقل التي في الكتب تقول" الصمت حكمة". وهي حروق عابرة في سماء الحارة، ونقون مدماة، ودراجات ملونة بأبواق زاعقة، وهي رحلة مضطربة وقت أن يشتهي الأولاد نزعها من تحت الأقدام ودفعها دفعًا إلى علبة كبريت في زاوية.

بعود ثقاب مشتعل، يخمش أحدهم قرن مفرقعة فتنفجر محدثة خللاً في السمع ثواني معدودة، ثم يتبع ذلك صرخات ودعس بالأقدام على الأرض. يضحكون بصوت عالٍ، وتشع في العيون صورًا أولية عن المشهد. إصبع من الورق في قلب الحارة انفجر. شهود العيان، في المكان، هم الذين وقفوا

يتضاحكون ويتجالدون بأصوات حادة تحت شرفات البيــوت الخالية. بيد أن المكان ارتج تحت الأكمــام المطويــة إلــى الخلف. وانتفش الغبار مكان السواعد الصغيرة العارية فــي محيط الصعقة. وكانت النتيجة أن تهشم الكثير مــن الســخط على الفتيان. يقود الحملة عليهم، الكبار الذين فــي الغــرف يرتدون أوقاتهم بحساسـية الفراشــات. لكــنهم، كالعــادة، سيترقبون بلا حول دوي المشــهد التــالي، دون أن يحــرك جمعهم ساكناً. أما الفتيان، فكأن مهمتهم الوحيــدة مطــاردة الهدآت، وبث النار في أجنحة السكون بالحي. لا يتطلب ذلك الكثير من الجهد والاستعدادات المســبقة. تقــوم بالمهمــة، ريالات معدودة يمرق بها أحدهم إلــى بــاب متــوارٍ عــن الأنظار، أو إلى مجمع تجاري يجلس أمامه نسوة يفترشــن الأرض. وبمجرد أن تتبادل الأيدي مــا بحوزتهــا، تخــرج الصفقة برائحة البارود.

هناك أكثر من خلسة في الطريق الــذي يصــل بــين المورّد والتاجر من ناحية، وبين التاجر وصغار الموزعين ثم دوائر الفتيان والأطفال من ناحية ثانية. والخلسات المنضودة بإتقان بين كل نقطة ونقطة، يدخل فيها القش الــذي تضــيع

بداخله الإبر. القش المفرغ عمدًا من أسنان مقشة أو من وشاية كبريت على الحافة. لكل طرف خلسته التي تخصه. المورِّد يدحرج بضاعته في المعابر ونقاط التسليم، بيدٍ جاهزةٍ للمصافحة وإنعاش الهواء الدائخ في الزحام وقت الحاجة. التاجر يرص بضاعته في المخازن ولا يبديها لغريب خشية سوء الطالع.

لكن الأطفال بهياكلهم الصغيرة الصاخبة، هل لديهم وقت للإصغاء والطاعة، عندما يتعلق الأمر بانفجار مفرقعة تم بمحض رغبتهم؟. لا علاقة للكبار بالمسألة. إن أكثر ما سيحدث للكبار هؤلاء، هو أنهم، متشبثين بفرش الراحة، سيتململون في أماكنهم، ثم يسكبون ملافظهم البذيئة على الشارع وأهله. بعضهم سيتحدث بحزن عن التربية المفقودة وإهمال الآباء، بينما يوافق البعض الآخر على إهمال الآباء فحسب. بعد ذلك، ماذا؟. لا شيء البتة. سينامون في النهاية وفي أفواههم رميم كلام غابر.

آنذاك، سمع حافل أحدهم يقول: من يعمل التفكير في هذا الأمر، يسلم بنتيجة واحدة، هي أن الجميع يستغل الجميع

لينفجر. المــورد، الجمركــي، التــاجر، الأطفــال، الآبــاء والقوانين.

أما هو، حافل، فلو كان سأله أولئك الــذين ينظــرون للمسألة من ذلك الوجه، لكان سيجيبهم على النحــو التــالي: سيأخذهم إلى أحد الميادين الرخوة في الحارة، ثم في يد كــل واحد منهم يضع بضع مفرقعات وكبريتاً. وفــي الومضــة، سيرى الجميع أنهم يطيرون بأجنحة لا مرئية في السماء. لن يحتاجوا إلى عمر إضافي ليقوموا بالتجربة. فقط يدخلون في الومضة الخاطفة بأعمارهم المتوفرة وبسرعة ذوبان كل منهم في مخروط الضوء المائل آنذاك. بعــد انقشــاع الضــوء، سيعرفون أنهم عادوا إلى الأرض بمجرد أن يــروا الرمــل الثائر من حولهم يهدأ، والهواء المضطرب يعود إلى وضعه الساكن.

يعتقد حافل أنها لوقاحة كبيرة أن يعلم الفــك الســوية كيف تقوم بالحركة الصحيحة لفتح وإغلاق الفم؟. أو كيــف يقشر اللسان الضالع في الحكمة، تلك الطبقة الســميكة مــن الخبرات المتراكمة في البلاغة وفن الكلام من أجل الاستحواذ على بضع كلمات تافهة تقال في غمرة انفجار "طرطيعة". إن

العقل الكبير لا يصبح كبيرًا عند الحكماء والراشدين إلا عندما يضع لعالمه عالمًا آخر يقابله من الصغائر وتوافه الأمور. لكن الأشياء ليست كلها تقيم بعين واحدة ولا تُرى من مكان واحد. فالطفل ليس بالقدمين يقيس حاجته من الأرض، كما يتصور حاقل أحيانًا، وإنما بمقدار ما لديه من إدراك ومنطق في الوصول إلى لعبه وإلى أترابه من أقرب طريق. من خلال هذا الإدراك وهذا المنطق، فما عساه الكبير فاعل ليكون أحكم منه أو أعقل يا ترى؟!. لفافة صغيرة محشوة بالمسحوق الناري تنسف الفرق. عود ثقاب جيد الاشتعال يحرق الادعاء بالتمايز. إن قفزة خيال رشيقة أعلى قليلاً مواهبه في التفكير، لا تلصق بالطفل صفة الجنون. كما أن أصابع إضافية للعبث وتفريغ اللهو في الساحات لا تعني أنه مشوه اليدين. كلما هنالك أنه أحكم التصويب نحو متعة يريدها بشرارة من النار.

لكن، ما الذي يجعل تلك اللفافة الملفقة من الورق شرارةَ حياةٍ نافذة في العظم لأناس، ومصدر فناء لآخرين؟. إنه البارود. في الواقع، لا سحر ولا جاذبية لتلك اللفافة بدونه. بل يمكن القول ألا سلطة لأشياء كثيرة في هذا العالم

بدونه. من تلك الأشياء، وليس ألفريد نوبل يعلم ذلك بالطبع، العم قائد الأشول، مجنـــون المكـــلا ومقـــلاع التصـــميمات العمرانية الأقدام في الحارة. بعد أن أدركه الغرق في الستين وتعب من مزاولة المهنة كمعلم بناء عتيد، لعب جيدًا بأفكـــار جماجم غنية كانت على وشك الانفجار، فخرجت من أكمامها أصابع البارود إلى الشوارع ترقص، وتطير، وتقهقـــه فـــي السماء، وتنفجر، بينما يفكر هو في مكان آمن لرزم الأوراق النقدية.

إنه البارود، المادة التي نهشت إصبع حافل ذات يـــوم فكظم غيظه على أمل أن يلبسه خاتم فضة بفص عقيق يمان باهظ الثمن. رائحته تثير في الرأس عند شمها ردة فعل باردة لكنها محيرة. رائحة فحم عادية، للوهلة الأولى. غيـــر أنهـــا سرعان ما تؤجج رذاذها في التجـــاويف فتحرقهـــا بقـــرابين كيميائية فاجرة. طعمه الحـــامض بعـــض الشـــيء لا يشـــد الاهتمام. مسحوق أعزل من الأسلحة في الظاهر. لا يعـــرف بالضبط من يقوم بإدخاله إلى الـــبلاد، ولا مـــن إي مكـــان جاء؟.. لكنه حالما ينفجر في تلك اللفافة الورقيـــة الرديئـــة، يسطع وميضه في الدماغ كنصل. يشل عصـــب الأطـــراف.

يدخل مغزله الناري في الرئة، ليبقى الفم مفتوحًا كمشـــاجرة في بدايتها، أما العينان، فللدهشة التي تــرتطم بهمـــا خـــلال لومضة كل الحق في جعلهما مجــرد فقـــاعتين ضـــخمتين تمتصان بنهمٍ المكان وما فيه.

بعد ذلك، هل كان يهمه غضب المرابطين في غــرف النوم طوال الليل؟ أو هل كان له أن يعبأ بالحارة كلها وبمـــن فيها؟ على كرسي ضئيل من الرمل الناعم كان يقعدها ويشعل فيها النار. الحارة بكاملها، إلى أعلى قليلاً، كان يشد فتيلتهـــا الملحاء. إلى أعلى، بالمقدار الذي يسمح له بإلقامها ضـــرع النار الصغير الخارج من عود ثقاب. بوم، بوم، بوم، مرات عديدة في خط مستقيم أو دائري وبعد ذلـــك يـــتخلص مـــن حطامها ومزقها الذاهلة وهو يمعن في الخروج مـــن غبـــار الرجفة. أحيانًا، يطيرها إلى السماء كفرشاة مشتعلة ثم يراقبها وهي ترسم حيطانًا جرداء ونوافذ مخلعة في الليـــل الفـــوقي الرطب على الأرجح. في كل شارع حتى يتعب وتميد مـــن تحته الأرض، كان يعيد تركيبها لينسفها أو يطيرها من جديد.

أترابه الملبدون بدخان آباء غـــائبين طـــوال الوقـــت، وضعوا أيديهم فوق يده وبايعوه أبًا صـــالحًا لا يغيـــب عـــن

العين. ملأت مخيلته في اللهو، رءوس بشر غامضين فانقلبوا بلا عناوين محدودة يدقون في الجدران رسومًا أشاع النـــاس بأنها تشبهه ومدوا وراءها ظلالاً طويلة إلى أبعـــد الحـــدود. كان لا يفهم كيف يمكن لصور بتلك الأشكال أن تخرج مـــن أيديهم بسببه. وفي كل الأحوال، يشك في أنه يشبه شيئًا ممـــا رسموا. مثلاً، ما كان ليخطر بباله قط أن يراه محلقًا بشـــفتيه حول أسنانه وكأنه يتألم من جراء مغـــص حـــاد أو بســـبب إمساك عنيف بينما يقف جدار منزل ضابط شرطة كخلفيـــة صلبة له. تلك الصورة أزعجته كثيرًا رغم أنهـــا لـــم تكـــن بالشكل الذي يمكن أن يقرر من خلاله ما إذا كانـــت تشـــبهه أم لا ، كما أن الخلفية كانت تفتقر إلى الانسجام مع الصورة. فضابط الشرطة ذاك، كان أكثر شخص يضـــطهد مســـراته ويقف لمتعه بالمرصاد. ورغم ذلك لم يكن جدار منزل ضابط الشرطة سبب انزعاجه، بل كان معنى الصورة. كان المعنى أنه بتلك الابتسامة أو تلك الدائرة البلهاء حول أسنانه، يبـــدو منافقًا للغاية ومتلمظًا لمن يقترب من الجدار ويتأملـــه. أمـــا عموده الفقري فمعقوف كقرن خروف إلى الـــوراء وينتهـــي طرفه العلوي بعيدًا عن رأسه. كثيرًا ما كان يجـــل شـــطحة

الصواريخ وهى تعمل في السماء تلك الخطوط المنحنية قبل أن تنفجر. أما أن ينتهي عموده الفقري إلى تلك الدرجة من الانحراف على أيدي أولاد ملاعين فذلك ما كان يغيظه بالفعل.

وفي رسم عثر عليه مصادفة على الجزء الخلفي من جدار العمدة بريكان لبّاد، كان يطفو على دموع مثل الطوفان من حوله. لولا ظل أسود شده للطرف السفلي لنافذة كانت بموازاته، لسلم بأول حالة غرق خرافية لإنسان على جدار.

وعلى ظهر حوش واسع كثفت فيه مخازن ضخمة تأملاتها التجارية، رسموا وجهه فقط. دائرة بحجم طوق النجاة المخصص للأطفال، تتوسطها دائرتان صغيرتان هما عيناه بالتأكيد. ثم، ودون أن يتوقف ذلك، تنشق أسفل الدائرة عن أسنان كثيرة إلى أن تخترق الأرض الصابونية التي تحته.

كانت كل الصور بظلال سوداء تسحب إلى الخلف البعيد، وكانت في كل مرة تجيء، تقترن باسمه. لا بأس. ذلك ما كان يؤكده في الغالب، وهو يحك بأظفاره بقعًا وهمية في الهواء. بمجرد أن تصبح أظفاره نظيفةً، كان ينسى

الأمر، وينهمك في عمل أسهل الأشياء، كان يسوّق أفكاره العشوائية بين أفراد شلته متخذاً من تعليقاتهم الماجنة رءوس أقلام تنفع في إنضاج الفكرة، أو في تدميرها. أو كان يطرق باب العم قائد في طرف الحارة برزمة صغيرة من المال، والذي كان بيده اليسرى ذات الأصابع الأربعة، يأخذها خطفاً، قبل أن يسمح له بالدخول إلى بيته الواطئ الملطخ بأنفاسه ورائحة الطبيخ في مواعينه. وفيما كان يغيب في حجرة أخرى أصغر حجماً، كان حافل يجوس ببصره في حاجياته الشخصية بلا هدف محدد. كان ينتظر فحسب عودته بحزمة أو حزمتين من المفرقعات من الحجرة التي جعلها مستودعًا للألعاب النارية. ثم أن الحجرات الثلاث التي يستخدمها لا تحوي الكثير من المتاع على أي حال. فراش في غرفة الجلوس من النايلون الملون، ممزق الأطراف ومبقع بالنار. مذياع ناشيونال قديم مضبوط على إذاعة اليمن ليلاً ونهارًا، ومزود بهوائي محلول القاعدة، دولاب خشبي فارغ في حجرة، ومشاجب عليها ثيابه وفوطه معلقة فوق سريره الحديد في حجرة مجاورة، مواعينه اللاذنة بأرضية المطبخ تنقض عليها فتحة كبيرة من الجدار الذي فوقها طوال الوقت.

ما يعني أن الحدود بينه وبين الغبار والقوارض وبقية الحشرات غير قائمة أو بالأحرى ليست لها الهيئة الاحترازية التي للواجهة.

وكان يتساءل، كلما نظر إلى حياة العم قائد المتداعية تلك، ألا يبقى من المال الذي يحوله بانتظام إلى المكلاّ، ما يساعده على توفير الراحة في سكنه؟ عندما كان يطفر منه مثل هذا المعنى أمامه، كان يقول له أنه يعيش عيشة الملوك. ثم يعلل وجوده بوضوح ويقول أنه جاء بحثًا عن المال وليس عن السكنى. غير أنه في كل مرة كان يصل إلى هذه النقطة، كان يجلس قبالته وقد اصطبغ وجهه بجدية باهرة ويؤكد له أنه لم يفارق أهله قط. وأنه منذ ربع قرن، وهي المدة التي قضاها في الحارة، يعيش هناك، في المكلاّ وفي جزئها الجنوبي على وجه الدقة كل ليلة!. وأنه ينام هنا جسده بينما روحه وبصيرته تقضيان الليل إلى جوار زوجته وأولاده.. منذ ربع قرن وهو على ذلك الحال!. كل ليلة يمدد جسده في الغرفة ويغطيه عن أسباب التلف، ثم ينسل مسافرًا بروحه ومشاعره إلى اليمن؟. ولطالما تساءل حاقل مستغربًا: من يصدق ذلك الكلام؟

وفي الواقع، لم يتوغل معه إلى نقطة أبعد. بل كان يكتفي بخطف البضاعة من قبضته، قبل أن يعود لتشغيل لسانه لفترة أطول. كانت تشغله عنه رائحة حزمة المفرقعات التي في يده. رائحة الحزمة الطازجة التي ترهف دائمًا يقظته، وتعلي من مستوى استعداده. وكان في جذل، يتخيل السماء وقد أراحت قبلتها الشفيفة على كرنفال أضوائه المنعكسة على الخزانات العلوية والهوائيات. على الرءوس المترهلة في المخادع. على الجباه الباردة. على الأعين المطحونة بالفراغ والكوابيس الليلية، كما كان يردد. بأشكال سديمية متعددة يعبئ الهواء وينقيه من الخرس الصاعد إليه من قلب الحارة.

في وجهه وساعديه، بثت المفارقة غزلها الأصهب ونبشت في يديه عن محاريث مسنونة، وطمي سيول لها عويل رجال هرمين. كولي أمر مزعوم، يحيك أترابه في العلن الخرافة عنه. وفي الخلفاء تنفخ الرسوم برموزها الغريبة والغامضة وجوده. بلحمه وشحمه وصخبه في ناحية، وبهيكله لعظمي وصمته المطبق في ناحية أخرى. أولاد هنا،

وأولاد هناك. وفي الحاجز الذي بين هذا وذاك، يرى لا شيء يتكهن بالإجابة على سؤال ماذا يمكن أن يكون في المستقبل؟

يريد أن يصبح أكبر تاجر في البلد يبيع الألعاب النارية. يريد أن يصبح عمدة الحارة. يريد أن يكون ضابط شرطة. حسنًا، إذا كان هذا هو المستقبل، فإلى أي حد يمكنه البقاء محتفظًا بتوازنه أمام انفجار طرطيعة؟. سوف يكون وقتها في هواء رغوي يلذع الرئة. سيسطع الوميض في الدماغ كنصل. مؤقتًا، أطرافه ستتوقف عن أداء مهامها في المجتمع. وبشكل تلقائي سوف يهوى مع أشلاء مفرقعة إلى الأرض رغمًا عنه. سوف ينفجر في مفرقعة أخرى. لديه ما يكفي من البارود في الداخل ليتفجر على دفعات وفقًا لما يحدث في الخارج. سوف ينادي في الناس: أنا تاجر الألعاب النارية. وسوف يجيبون: ها هو يكشف عن أسنانه اللبنية ويرضع إصبعه أخيرًا. سوف يصيح في الحي: أنا عمدة الحارة. وسوف يكملون: في يده كبريت "أبو شعلة" ويركض في شارع الأولاد الذين يسمون أنفسهم الشياطين السبعة. سوف ينتفخ أمامهم: أنا ضابط الشرطة. وسوف يتمتمون:

ها هو يحل بسطاره في النهاية ويعترف أنها أكبر من مقاس قدمه.

وفي الواقع، لم يحدث أن اكترث بزمنه لينظر من خلاله إلى مستقبل على تلك الشاكلة. فتجار الألعاب النارية ليسوا في مدى صواريخه الصغيرة التالفة معظم الوقت. كما أن كفه التي بالكاد تحتضن ورقة من فئة الريالات الخمسة، لم تصعد يومًا طوابق المدينة لتجرب كيف تكون مصافحة تاجر مفرقعات. أما عمدة الحارة، فليس كثيرًا يفكر في أمره. أكوام النشوة الصغيرة لألعابه، تدفعه لأن يقسم أن السوس لن يأكل عظامه كما يفعل مع أريكة العمدة. لا يحب لداء المفاصل أن يفرح به في وقت مبكر. العمدة لا يركض مثله في قضاء شئونه. لا يستعمل يديه في تقليب الأرض كما يفعل هو معها كل يوم. ربما من أجل ذلك، احتاج العمدة إلى العصا لتتوكأ عليها ساعات دوامه. كما لم يفكر حافل في مستقبله انطلاقًا من أن شيئًا آخر سوى ألعابه النارية يمكن أن يكون مهمًا، إلا إذا كان لزامًا عليه أن يصبح شخصًا آخر. ولكن، مثل من؟ . ضابط شرطة؟ لا يتصور أن نهايته ستكون على تلك الدرجة من سوء الحظ. فهو شخص متفائل

وينبغي أن يكون كذلك على الدوام. حسبه أن يطرق باب العم قائد ليحظى بمطالبه. كوب الشاي الذي يقدمه، ينوب فــوران الحاضر فيه عن طعم مستقبل في مســتودعات غيــب وراء الإدراك. لم يفكر أن يكون عمدة في أي وقت. لم يســبق أن ألهب ظله بالسوط منتضيًا هيئة ضابط شرطة يحث الخطــى قافلاً من عمله. مجرد قامة قصيرة احتكت بالهواء فاشــتعل في أطرافها عود ثقاب ومفرقعة.

نكث الرمل، فعرف أنه في حدود الومضة، يكبر. بين العتمة والضوء، يلفق للجميع الترهات والأوسمة. في الدوي، يكثف الضربة القاصمة التي تخبئها القشة للبعير. لكنه رغــم ذلك، ملتصق أيما التصاق بإبرة الحياة من حولــه. أرخبيــل طيور مسافر في قنينة. برية واسعة تموج في عين صناعية. لم يكن ذلك الاستنتاج صعبًا للغاية. فقد كان في نظر أولــي الألباب من أهل الحارة ذلك الولد الذي يحشو الآذان بأصوات زاعقة، خارج الغرف معظم الوقت. وبــين داخــل الغــرف والخارج، يكاد يكون للحياتين نفس الملمــس الخشــن فــي الظاهر. نفس الأفعال. الأصوات ترتطم بالجدران مثل قدور وليمة في شاحنة على طريق جبلــي. الغضــب، الانفعــال،

الصراخ، الضرب، البكاء، في الداخل. في الغرف المزينة والمدهونة جيدًا كما جرت العادة. غير أن ما يصم الآذان عندهم هو ذلك الذي يحدث في الخارج. ومن قبل ذلك الولد وحده. الانفجارات ، الصراخ، الضحك، الركض، العراك والسباب المبتذل. الدخان الهارب من جسد مفرقعة، والبراح المشوش المذعور. إذًا، لماذا يرتد ابن الشارع إلى الغرف ويقلب فيها الوسائد على الرءوس الوديعة؟. لا بد أن يسألوا هذا السؤال. وفي أحاديث عارضة طرحوا سؤالاً آخر:

- أين الشرطة من ذلك المجنون؟

وهكذا ، تململت في قلب البيضة الصامتة مضغة الحدث السعيد. صوص بغضاريف حديدية ومنقار أحمر في مواجهته. هكذا دخل المخفر بتهمة إزعاج المصلين، وإقلاق راحة السادة وجهاء الحي.

(٢)

على أحد المقاعد الخلفية لجيب الشرطة جلــس. رأى السماء تفر من ثقوب الشراع الذي فوقه. نظر إلــى أسـفل فرأى أرضه وسخة وضيقة. ظهره مسنود إلى جـدار مــن قضبان خشنة كأنها محفورة بالأظافر. أما وجهه، فأمامه متر من الهواء والتقاط الأنفاس. باختصار، رأى نفسه داخل خيمة مغلقة على صندوق جيب للشرطة، يمضي قدمًا إلى هدفــه. من قدمه صوتت بلا أدنى تردد، صـــافرة الخـــط الأخيـــر. لا مفر. لقد وصل نهاية المضمار. وهاهو يلمس بيديه النقطة التي كان يفترض أن ينفجر عندها صاروخ أطلقه منذ زمــن ونسيه. تقلصت أضلعه في لفافة جديدة من القطن هذه المـــرة لا من الورق. وأخرج قلبه مطرقة حداد راح يدق بها صدره بلا هوادة. وفي كل مرة، يتوقــف الجيــب أو يهــدئ مــن سرعته، تسحبه إلى لفائفها حبال سميكة تقوم وحــدها بـــدور البطولة المطلقة في ساحة إعدام. وتخيل رأس الضابط يغطي الحائط الذي خلفه، وفي تجاويفه الكثيرة قــرارات بـــالحبس،

وقرارات بالضرب، وأخرى بالمنع من النوم، والكثيـــر مـــن السباب الضروري لتحطيمه.

في دمه، نزل مبكرًا رعب حقيقي من أي جيب شرطة يمر. ومنذ طفولته، ليس يعلم من دس في رأســـه عريضـــة توصيات بالقلم الأحمر تحذره من الشرطة. من كل شـــرطي يدب على وجه الأرض. وكحبوب للنمو القسري، تعايش مع الوصية، وألحق بها كل ما يتعلق بســـيرته مـــن خرافـــات، وأقاويل على أنها لا تمت له بصلة. وتحدث في صمته.

– إن كنت ذكيًا فهات البرهان يا جدار. يـــا أطفـــال الشوارع الملاعين، ليس بالفحم يمكـــن إثبـــات أن ذلك الرأس المدور في جـــدار ضـــابط الشـــرطة يخصني.. من قال لكم أن الأمور سائبة إلى الحـــد الذي تفترضون فيه غبائي وصـــمتي، لترســـموا وجهي بذلك الشكل الأخرق؟. من قال لكـــم أنـــي بتلك الابتسامة البلهاء، يمكن أن أسامحكم، وكأنني لست في طريقي إلى ضابط شرطة لديه كل الوقت لانتظاري وتفحصي من رأسي حتى أخمص قدمي قبل أن يحقق معي؟

واخترق ذهنه بعنف مشهد وقوفه أمام الضابط، فاضطرب، وأثقلته تفاصيل اللحظة المنتظرة، بشعور الفتى المنهزم المنكسر قبل أي شيء آخر. ها هو يتخيله الضابط ، في كل مكان، على تلك الصورة المريعة، وقد استعد في مكتبه لصفعه ورفسه وتعليقه من أذنيه وحرمانه من الكلام. أكثر ما كان يخيفه هو ألا يمنحه الفرصة ليقسم له أن تلك الصورة لا تشبهه على الإطلاق. سوف يتوسل إليه أن ينظر إلى وجهه بتمعن ليرى بنفسه كم هو شاسع الفرق بينه وبين الرسم. إن كان هناك وقت، سوف يشرح له أن تلك الصورة إنما رسمت بالليل لهدفين ليس هناك أشد منهما وضوحًا. أولاً، ليعطوا عنه انطباعًا شيطانيًا في ذهن كل من يمر بالصورة من أهل الحي ليكرهه ويحذر غيره منه . ثانيًا، بإمكان الضابط أن يستنتج بكل سهولة أن الهدف من رسمه بتلك الطريقة على جداره، إنما هو للوشاية به عنده. الهدف هو أن يأمر بالقبض عليه وإحضاره إليه وقد أيقن من خلال تلك الصورة، أنه سيرى واحدًا من الأبالسة وقليلي الحياء الذين لا يحترمون القوانين ولا المثل العليا في المجتمع.

ولعله يرق عندما يصل إلى هذه النقطة. عندها سوف ينتهز حاقل الفرصة ليحقق له مفاجأة لا يستهان بها. أن يظهر له أنه بخلاف الأبالسة، وديع وهادئ ولديه وجه طفل مليء بحبوب سنوات من المراهقة، على الأقل. سيظهر له أنه ليس قليل الحياء بالشكل الذي يناسب جسمه النحيل، ورقبته المنهكة من شدة الهزال. ويسأل نفسه مسترشدًا:

- هل يستحسن وقتها أن أبكي وأذرف الدموع لأمنحه دليلاً آخر على أني لست أكثر من ولد طيب تورط في لعبة مزعجة ومؤذية للحي؟

إن سأله الضابط عن أهله، ماذا عساه أن يقول؟!. سوف يخبره أنهم جميعًا ماتوا. وأنه وحيد لا بيت له ولا أهل وأنه بحاجة إلى وقت طويل ليعقل ويستعيد توازنه. غير أنه يعود ويذكر نفسه ألا يبدو له غبيًا حد أن يتجرأ بين يديه بهذه الكذبة. فأهل الحي يعرفون أنه يضوي كل مساء إلى دار أبيه وأمه الحبين. وأن أباه تحديدًا، يعيش أخصب سني عمره، بعدما تزوج بفتاة شامية في التاسعة عشر من عمرها أخذته معها بضمير مرتاح إلى نعيم لا يخرج من إلا لمامًا. عليه أن يخترع له صورة جديدة مغايرة لتلك التي على جداره ليحظى

بعذاب نزيه. الذي لا شك فيه، هو أن لا أحد سواه يستطيع أن يرسم نفسه بالدقة التي يريد لو كانت لديه القدرة على الرسم.

حينما يكون في الشارع بأقدام ترتجف من التعب، لأنه أفرغ في التراب حزمًا عديدة من المفرقعات، ولأنه شنق الهواء بالصواريخ، ولأنه غمر الجدران بلغط وفير منذ الصباح، وفي زاوية مرح، تلتقط ذبذبات لهوه أجهزة شرطة الحي، فتجيء مباشرة إلى النقطة التي وقف فيها بفم مفتوح ينظر إلى مفرقعة صغيرة تسقط على قدمه وقد علم أنها خط النهاية وليس بعدها إلا الجيب، حينما يكون كذلك فإنه لا ريب لن يفكر في اللعب. ولكي يكون بشرًا عاديًا، يتحتم عليه أن يتنازل قدر الإمكان عن قارورة الخرافة التي صنعها له أصدقاؤه البعيدون عنه الآن. عليه أن يصدق أن الجنود الذين حضروا لأخذه، لا يقيمون وزنًا لأسطورته ولا للخرافات التي قيلت فيه. سوف تملأ الفضاء كركراتهم العالية وهم يتحدثون عن زوجاتهم البدينات، بينما في يديه يضعون القيد.

أصدقاؤه، نعم، تحدثوا كثيرًا عنه في السابق. قالوا أشياء يعجبه أن يسمعها تردد على الألسن بين وقت وآخر. وذكروا أشياء لم يكن يؤمن بها في الواقع، لكنها قيلت على أي حال وأصبح من العسير أن يتجاهلها. تحدثوا بأنه قاوم خفافيش صغيرة مسمومة بثتها له من نسائم الغروب مهاجرة أفريقية على علم بالسحر تسكن في أقصى حارة بالبلد. قالوا أنه قاومها بوابل من الصواريخ الصينية "مسافر القمر" التي لا تخطئ، أهدافها مهما كانت بعيدة ومراوغة. وأنه ، لحظتها سمع صراخ العجوز وقد أصابها العمى تناديه أن يبقي قدميها سليمتين لتحج عليهما وتصلي في مكة صلاة مودع. أشاعوا عنه، أنه بعدها أكتسب قوة السحر في تحطيم الأنداد. وأنه بسبب ذلك، وبمساعدة بسيطة من العم قائد خاض في علم التنجيم واستقراء أثر الأفلاك في التأثير على الأمزجة والأهواء. أليست الكواكب جزءًا من السقف الكوني الذي يستهويه النظر إليه ما أن تغوص في ثنياته مأدبة ألعابه النارية؟. أو حين تتهاوى من أركانه ظلمات الفراغ بعد كل حفلة؟

أصبح يترصد أحوال الحارة من يوم إلى يوم. يغتنم اليوم الذي تسترخي فيه الأوداج، وتروق فيه النفوس المضطربة، فينصب لها الشراك من قلب الشارع ويكثف زخم المناورات. لم يكن مهمًا لديه من يسقط في الشرك أولاً. غير أنه كان يفضل ألا يخرج أحدهم رأسه من النافذة ليعلن انزعاجه الفادح منه ويسميه بالاسم. كان يحبذ أن تكتم الجدران غضبها عليه ولا تصرح به للخارج. فقط يسمعه يتر من الحيطان مثل صوت آلة تنظيف عجفاء، أو ثقاب كهربائي مختل الريشة. أن تتململ في الداخل وقد أصابها الإعياء من الغيظ ولا تملك الفرصة في التعبير عن الألم والإحباط بسببه.

أصحابه لم ينسوا طبعًا، قدرته الغريبة على التنقل من مكان إلى آخر في وقت واحد. قالوا أنه حاز تلك القدرة من الفائض الشيطاني الذي كانت تمحضه إياه شهيته في امتصاص الطاقة الشمسية العاتية كل صيف. بيد أنهم نسوا أو تناسوا شيئًا لا يمكنهم إضافته إلى قارورة أساطيره التي يحملونها له في كل مكان. نسوا الشرطة. أو هذا الجيب الذي يلعق الإسفلت في شارع عام مزدحم بالسيارات، وقد بدا على

راكبيه الملل، واجتاحتهما مخاوف أن تطول إجراءات تسليمه للمخفر والعودة بالتالي إلى منزليهما متأخرين:

- أولاد مساطيل بحق. كان يقول.

ويكمل:

- إنهم بالدرجة التي يجعلونك تؤمن فيها بقدراتك الخارقة، تجد نفسك، وفي مثل هذا الموقف العصيب، تسيطر عليك كوابيس الرسوم التي صنعوها لك على الجدران. مجرد هيكل عظمي فارغ، يثير الشفقة بقدر ما يبعث على الاشمئزاز.

ها هو في نفس الحاجز يبتلع مثل جراب النجار مسامير لا يقبلها حتى الخشب. من ناحية، يميل إلى تصديق أنه خارق للمألوف وعصي على اللمس. ومن ناحية أخرى ، يعتقد أنه بالفعل أصبح ملطشة للمرضى والعصابيين في الحارة بحيث نبشوا عظامه بالفحم وفخموا ظله الطويل حد أن الأمر أشبه عليه في أكثر من موقف. لو حسب الحيز الذي يحتله الآن في مؤخرة الجيب لوجده ملائمًا إلى أبعد الحدود لاحتواء مفرقعة. ما هو الفرق إذًا بين عود ثقاب في يده وآخر في يد أحد الشرطيين؟ لو حاول أحدهما النظر إليه

بتمعن لرآه مثل مفرقعة من نوع" نقار الخشب" رثًا ومتآكـــل الحواس والأدهى من ذلك أنه سيتنبه إلى قابليته الشديدة لعدم اشتعاله على النحو الذي يرجوه لنفسه. سينتهي الأمـــر فـــي أسرع من لمح البصر بعد دقائق. وبما أن الوقـــت متـــأخر، فسيقذفان به في غرفة التوقيف حتى المساء أو ربما الغد.

ترجرج الجيب في منعطفه الأخير، وخرجت من فـــم أحد الشرطيين وردة رمادية من دخان نتن الرائحة. سيجارة وبضع كلمات قليلة وبسيطة أنهت المشوار والســـلام. ســـأل أحدهما ، وكان بدينًا وعلى وشك التقاعد، إن كان بحاجة إلى ماء؟، أجاب بالنفي، بهزة من رأسه بينما عيناه تجوبان ثقوب الشراع الذي فوقه بحثًا عن ملامح سقف أعلـــى لتوقعاتـــه حول ما يمكن أن يحدث في الداخل. صرت العجـــلات فـــي دورتها النهائية التي وقفت فيها بالضبط أمام البوابة الداخليـــة للحجز.

وقرعت الطبول. كان بروح ملئت فجأة بالنكتة رغـــم تفاقم اضطرابه، يتخيل أن طبولاً ضخمة قرعت لـــه. جـــاء الولد الخارج على القانون. تعجبه التسمية التي أطلقها علـــى نفسه ويشعر بغبطة غريبة. إذًا، اصطفي يا أقدام، ودقي على

الأرض يا أعقاب البنادق. لكنه ما أن بلـغ بـاب المـدخل مخفورًا بالجنديين حتى أحس بزوال مجده فغمغـم: أهـلاً، أهلاً، بالحشرة، كيف حافظت طوال الطريق على جنيحاتـك الرقيقة، ولم تتمزق في النفخة التي واكبت القبض عليـك؟.. بغضاريفك الهشة، لم تربحي السباق في أول محاولة، وها أنت تتوقين لتمثيل أبناء جنسك في فناء غير معلن، وبشروط غير ظاهرة للعيان. تدلى إذًا بلعابك الرقيق حتـى الصـباح، وحاذري من الوقوع في رهانات غير محسوبة.

شعر، وهو يفتُ لنفسه وليمتَها اليابسة المكونة من الليل والبعوض ومدخل مستطيل بباحة ملتوية تعج بالموقوفين من كل نوع، أنه عمل غلطة حياته. كيف لم يبحث عـن أولئـك الرسامين المهرة الذين أوقفوه على باب الرؤية. ليقبلهم جميعًا ويحرث في أصلابهم دعـوات صـادقة بالحيـاة السـعيدة لذرياتهم. لقد رأوه على حقيقته فرسـموه كمـا رأوه. علـى حيطان المدينة، وبالفحم الطبيعي، رسموه هـيكلاً عظيمًـا، ليدرك "أن أصلب ما في جسم الإنسان هو عظامـه، ورغـم ذلك لا يمكنها أن تقاوم ضغطة خفيفة من توقه إلى الخلـود. ليس من سنة العظم، أن يعطي تفسيرًا أعظم مـن تفسـيره

لهشاشته في ساق إنسان يركض يريـــد أن يلحـــق بـــالأفلاك البعيدة، ويفتتح في السديم الكوني رحلة الأبد" ليس يدري أين قرأ معنى هذا الكلام ومتى أو أين سمعه أو في أي حلـــم رآه مطبوعًا في رأسه؟. كلنه يفهمه الآن بشكل أفضل، إن هيكله العظمي المرسوم بأيدي أولئك الصوفيين الزهاد، أو أولئـــك الشياطين السحرة، ومن لا يعرف في الواقع من هم ولا مـــن أين جاءوا، ليقول له أنه، رغم تجليات البارود في خلجـــات مفرقعة تنفجر في الفضاء الناعم الواســع، ورغـــم انتشـــاء الصواريخ في السماء واحتراقها في الكـــون الهائـــل بفـــرح ظاهر وكأنها تريد أن تعيش سديمًا في السديم، ورغم شعوره اللذيذ بامتلاء روحه وهي تقاوم الصمت والجاذبية والغبـــار، ليقول له هيكله العظمي الآن، أنه ليس إلا وحشًا صغيرًا في قفص وحش كبير.

إن الجنود هؤلاء، ووكلاء الرقباء، والرقبـــاء أنفســـهم الذين ذرعوا المدخل ألف مرة قبل أن يتربعوا حول صحون فول بلدي، وجبن أبيض مع خبز شامي وأطباق ضحلة مـــن الطرشي، لا يعرفون عنه أي شيء. من يكون بالضبط؟. ذلك

ليس مهمًا عندهم بقدر ما هي مهمة ونافعة وجبة العشاء تلك. ولو صرخ بملء فمه:

- حلوا هذا اللغز. عمري في العشرين. طولي مائة وستون سنتيمترًا، ووزني ثلاثة وخمسون كغم، أدرس في ثانوية القرطبي، فما هو الشيء الذي طوله ثمانية أضعاف عمره، ووزنه ثلث طوله؟

لو سألهم حل ذلك اللغز، فلن تكون قضيتهم أن يشعروا بالذنب تجاهه، ويقوموا عندئذٍ بمواساته ويشدوا من أزره لخشيتهم أنه ربما أوشك على الانهيار كما يحدث في العادة لسائر المراهقين الذين يوقفونهم بين فينة وأخرى.

لا بد أنهم، وأمام حالة مثل حالته، توقعوا حدوث أمور من قبيل التوسل، الرجاء، استمالة القلب لإطلاق السراح، لقاء وعد جازم بالتوبة وعدم العودة مرة أخرى للمكان. ولا بد أنهم، وهم الذين تحلقوا حول وجبة العشاء الهنيئة، ازدردوا من قبل الكثير من المواقف المماثلة وعاشوا بعد ذلك بضمير المهنة المحض. ليس في يدنا الأمر، سيقولون له، كما قالوا ذلك لغيره من قبل. إنهم لا يعرفون عنه حتى اسمه. فما عساه يكون الشيء الذي يحملهم على الإنصات له

والعمل على إطلاق سراحه؟. كما أنه، في المقابـــل، يــرى وجوههم للمرة الأولى وبتلك الصور التي ظهرت بها أمامه. تساءل، متضورًا من مغص داهمه في بطنه، عمـــا إذا كـــان هؤلاء الجنود يعيشون في نفس البلد؟ كيف لم ير أيًّا منهم من قبل، في دكان، أو في مخبز، أو في الشارع حيــث يمضـــي الوقت فاتحًا عينيه على آخرهما؟. ليس عنده شك في خبرته بالبلد ولا بمعرفته بأهله. لكنه هنا يكاد يجــزم أن الوضـــع مختلف. بعد اطراقة خفيفة، فضل ألا يحول الملاحظة إلـــى ريشة على رأسه وهو في ذلك الوضع الحرج. مـــن ســـيهتم للأمر؟. ثم أنه ، أحيانًا، ينهمك في عمله حد أن عينيه إما بين يديه حيث توجد مفرقعة، أو في السماء حيث يتابع صاروخًا في رحلة طويلة بلا عودة.

رغم ذلك، ليست هذه هي المشكلة. كما ليست المشكلة في المدخل المستطيل الداكن الذي يشبه بهوًا غير أنه لـــيس كذلك، من الباب الرئيس تبدأ حجارته القديمة يقضم بعضـــها بعضًا، إلى مسافة خمس حجرات متشابهة هي كل ما يطوله نظره من العمق المعتم للمبنى. حجـــارة مختلفـــة الأشـــكال والأبعاد حجارة محدبة، حجارة نصـــف منتفخـــة، حجـــارة

مسطحة ملساء، وأخرى ملتوية وناتئة، وكلها جنبًا إلى جنب، بلون المساء الذي انسكب منذ نصف ساعة على المكان. إنها من ذلك النمط الذي يبعث على البكاء بعد لحظات تعقب قصيرة لماهية اقتصاره على الظهور بملامح مشوهة حزينة رغم صلابته وقوته.

كائن حجري، كان قد دخل في حالات تشنج عديدة، قبل أن يترك نفسه في يد الإهمال فترة من الوقت. ومن جوفه القاني، استوى الملاذ ثانية. مسته رعشة الحداثة في أعماقه، فارتجف الحجر، واستأنس المدخل بضوء هزيل لمكتب استقبال لا يعمل ليلاً. مرة أخرى، تتفلق من قلبه الحياة. ومتحللاً من ثقل التاريخ، يعود بشهية جبل لابتلاع الناس. الممرات مضاءة، والغرف مجهزة بمستلزمات الحياة العصرية، يصبح مقرًا للشرطة. في الطوابق العلوية مكاتب الإدارة، وفي الدور الأرضي ثكنات الجنود، ومكتب الاستقبال، وغرف التوقيف، هكذا تصور المبنى العتيد من داخل غرفة توقيف ضيقة مليئة بمخلفات موقوفين أخلي سبيلهم قبله. وفي الواقع، فإن فضوله المتفاقم رغم سوء العاقبة المتوقع، ورغم شعوره بصعوبة التنفس، هو الذي

يقوده إلى هكذا تصورات، الجزء الذي لا يراه، يجتهد في تخمين شكله وتفاصيله. يلونه بحسب الحالة التي يعيش. ثم يحققه بخيال مقارب لما يمكن أن يكون عليه في الحقيقة حسب اعتقاده.

ثمة أمر يهمه للغاية للقيام به فورًا. تجميع مكتب الضابط المسئول وتحديد موقعه. أين يكون يا ترى؟. وكيف هو اتساع المكتب؟. هل ثمة نوافذ كبيرة مما يلي شروق الشمس أم أن موقعه في ناحية لا يصلها الضوء؟. يقلقه أن يجد المكتب ضيقًا، معتكرًا بالعتمة، وبلا نوافذ في سبيل الهواء. لا يطيق الأماكن الضيقة. لا يحب الأماكن الكريهة بظلامها الخانق وبمظهر الجنائز في مساحاتها كغرفة التوقيف هذه، يشعر بالاختناق فيها. تتسارع أنفاسه ويجود بعرق يلحظه ذوو الذهن الشارد. كلامه يزحف متفرقًا كالدود. لا شك، سيلحظ الضابط ذلك إذا كانت مساحة مكتبه ضيقة وشاحبة الضوء. ومن خلال النظرة بعد النظرة للباب، سيعرف الضابط أنه يستعجل الخروج وعندها قد ينفجر غاضبًا من استهتاره وقلة تهذيبه. سينهض مناديًا على جندي خلف الباب، وباقي الكلام سيعلقه في خطوته الأخيرة وهو

يخرج. خذه للغرفة، كلمتان لا غير يقولهما للجندي ويطيع الجندي الأمر فينزل وإياه للطابق الأرضي، يدخل حافل الغرفة ويتأخر الجندي كالمعتاد. يصر الباب الحديدي وراءه ويقفل من الخارج. يعود الجندي إلى موقعه مرفرفًا بانضباطه كرجل آلي. ومن خلال الدرج يرتفع وقع أقدامه برتابة إلى أن ينقطع نهائيًا في الطابق المحدد. التصرف الأقرب لتفكير حافل هو أنه سيبقي يديه ملتصقتين بشباك الباب. وجهه للمدخل، ومن مكان قريب يمرر إليه الهواء سعالاً حادًا لجندي في نوبته الليلية.

لكن.. لماذا لا يتفاءل بالخير، ويقول أن طريقة كلامه تحسنت مع الضابط فتحدث إليه بلا تعتعة وحدثه الضابط بهدوء في مكتبه، وكان لحظتها منشرح الصدر رائق المزاج بعض الشيء؟ وبقدرة ما، وجد حافل نفسه يضحك وينبسط معه في الحديث. يحكي معه عن شئونه الخاصة كصديق عاد بعد طول غياب. يسأل حافل نفسه.

- أليسوا يقولون أنهم في خدمتنا على الدوام؟. لأعتبره صديقي فقط . أنا من سيكون في خدمته. ليطلب أي شي أقدر عليه وسوف يرى. إن سألني

عن المفرقعات وعمن يقف وراء توزيعها فليس هناك شخص أعرفه غير العم قائد. وأنا على ثقة، بأنه لن يجد في الخبر ما يلفت الانتباه. فالعم قائد منذ أن عرفت اللعبة وهو يدخل ويخرج من المركز في ظرف نصف نهار. يجلبونه إلى المخفر بالجيب في الصباح ويعود ظهرًا بسيارة الأجرة إلى عزبته في طرف البلد ويستمر في البيع. لقد حكى لي عن ذلك بنفسه وهو يضحك كصانع نكتة. بل قد يكون في ذلك سببًا لإطلاق سراحي. فقد يراني الأشول ويفكر عندها في التوسط لإخلاء سبيلي.

وشعر بارتياح جزئي.، غير أنه ما زال يشعر، وهذي المشكلة، بندم حقيقي إذا لم يفكر جيدًا في مغزى الرسوم من قبل. ها هو يدفع ثمن غبائه على نحو وافٍ وعاجل. وفي الحقيقية، لا بد أن يقر بأنه طالما عانى من قصور واضح في التفاعل بشكل جدي في حصة الرسم. مادة ثقيلة كهواء الورش الصناعية. مزعجة بالطريقة التي تنفرط فيها علبة ألوان دفعة واحدة على البلاط أمام المدير. ولطالما تساءل

عن الفائدة المرجوة من وجود مدرس للحصة الفنية مادام أن اختبار المادة ينتهي بكلمة ناجح آخر السنة كما تنتهي الحصة بالذهاب إلى الحمامات لتنظيف الأيدي من لطخات الألوان، بيد أنه لا بد من توضيح الفرق. فمادة الرسم في الفصل، ليس من ضمن مواضيعها المقررة رسم هيكله العظمي على الحيطان. والفحم ليس مثل قلم التلوين الأسود الذي لا يستعمل إلا وقت الضرورة على الكراس.

المغزى واضح الآن. يرسم الهيكل العظمي بشكل مختصر في الظاهر. خط واحد للعمود الفقري. خطان عن اليمين وعن الشمال لتثبيت اليدين. دائرة في الأعلى، في إشارة إلى الجمجمة. عينان مفتوحتان، أنف بأرنبة بارزة، وفم. لا وجود للقدمين في اللعبة. هذا هو كل شيء بشكل عام. عندما يبحث التفاصيل، يفترض أن يربط الرسم بموضوعه الخاص به وفقًا لطبيعة البيئة والظرف الذي شكله والزمن والمكان أيضًا. غير ذلك، هناك فن الرسم بتلك الطريقة الساحرة التي تشي بخرزات الظهر من بعد. تكاد تحسها بالنظر تهتز في العمود الفقري؛ كما لو كانت تهتز في بخار ماء يتصاعد على مهل. ثم ذلك الانفجار الشفاف

لشجرة من العروق في الهيكل، إلى الحد الذي يبلغ من التأثير ألا تكاد تفرق بين الخيال فيه والحقيقة. ثم إذا ما أنعم المـــرء النظر في اليدين، هناك الطيف الذي يشبه انعكـــاس هــذيان مبخرة طفيف على مرآة. رقيق وواه، غير أنه مـــن القـــوة بحيث لا يدع للرائي تصورًا آخر سوى تصور أنــــه اللحـــم والعروق والعصب. وهكذا في كل عضو من الهيكل بغـض النظر عن الموقع الذي يوجد فيه. سطحي وعميق. ظـــاهر وباطن. أما عندما يُقرأ الرسم لاستظهار إشاراته الكامنة فيه، فيميل حاقل إلى أن التفاصيل في الصورة العامـــة، تحمـــل ملامح أشياء لها علاقة بالمستقبل. إشارات طفيفة عن شـــيء ما سيقع. ليس متأكدًا مما يقول، بل هو مجرد إحســـاس. إن محض وقوف رسمه على جدار، وفي الهواء الطلق، ليـــدل على رمزٍ أو على علامة ذات دلالة هامة لا ريب، ويتساءل حاقل متشوقًا إلى القبض على جواب قـــاطع، عـــن معنـــى انتشاره مرسومًا بالفحم على حيطان أناس في البلد لهم قيمتهم الاجتماعية. حائط ضابط الشرطة، حائط العمدة. حائط نائب المحافظ كما اكتشف قبل أيام أثناء جولة بالدراجة النارية في وسط المدينة ولا بد أن هناك حيطان أخرى لم يصـــل إليهـــا

بعد. كان يريد أن يعرف لماذا صعقت وجهه تلك الابتسامة البلهاء على حائط الضابط، فانشغل منذ وقت بطوفان الدموع على حائط العمدة.

يخمن أن تلك الرسوم لديها ما تقوله لكونها رسمت في العراء المفتوح، حيث لا حواجز ولا إطارات تقيد الإشارة أو تشتتها . في مقابل ما هو فيه هذه اللحظة، يشعر أن الرسمة التي على جدار الضابط، كانت تريد أن تقول شيئًا ما. ربما كانت تشير إلى ضرورة اتخاذ الحذر وأخذ احتياطاته اللازمة قبل مجيء الشرطة. الضحكة على الوجه ربما كانت تدل على أن القرار بإحضاره إلى المخفر قد صدر. الدموع على حائط العمدة، قد تعني شيئًا آخر. من يدري؟. لكنها في نفس الوقت، قد تشير إلى أن العمدة على علم مسبق بالأمر وأن ثمة عراقيل معينة تحول دون التوسط لإخلاء سبيله، لو كان فهم هذه الأشياء في السابق، لربما كان وضعه أفضل. ولكان لديه من الوقت ما يكفي للخروج من مرمى النيران بسلام. ولكان بحث عن أولئك الرسامين ليشكرهم. ولكان سألهم أن يتعلم منهم فن الرسم على حقيقته

وليس كما جربه في المدرسة. ليس تعلم الرسم فحسب، وإنما تعلم فن قراءة الصور والرسوم بالمفهوم الذي يطبقونه.

وقرع نفسه بحنق:

- يا للمرارة! ليس للغباء حصص في المدارس، وإلا لكنت أشهر من نار على علم. ولو أنني أنصت جيدًا لحدسي الفطري وحده، لكنت تنبهت إلى أن ثمة حركة في الخفاء كانت تنتظر اللحظة المناسبة لتقوم بخطوتها الضرورية.

وكان رأى قبل أيام دورية من سيارة جيب واحدة بالحي تتجول في بعض الشوارع جيئة وذهابًا ثم تختفي، وفي اليوم التالي تظهر مرة ثانية وتسلك شوارع أخر وتختفي أيضًا. وفي زيارته الأخيرة للعم فائد، سأله سؤالاً لم يفهم مغزاه إلا الآن. لقد سأله عما إذا كان يعرف في أي سورة من سور القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾؟ ولما كان وقتها بحاجة إلى أن يراجع المصحف الكريم ليجيبه على سؤاله، طلب منه أن يتوضأ أولاً في مكان وضوئه، ثم يستعير مصحفه الكبير الموضوع في مصلاه. لم يوافق

بالطبع. فهو كما أخبره من قبل، جلب تلك النسخة من القرآن من بلاده كإرث مقدس أورثه إياه أبوه عن جده ومـــن غيـــر الممكن أن يسمح لأحد بمسه أو تصفحه. بعد تلـــك الزيـــارة مباشرة، رأى حاقل تلك الرسمة بذلك الشـــكل علـــى جـــدار ضابط الشرطة.

(٣)

الغرفة، كيس ضيق من الظلام والبعوض. هواء التنفس ، يتخيل حافل أنه نفس الهواء الذي يعشق السجون في العادة، ويتمحك بالمساجين في العنابر كل يوم. الأوكسجين نفسه، ورائحة الأجساد، والأمونيا، والمواد المتطايرة من طلاء الجدران، ورائحة التبغ، وعفونة المياه في الحمامات. يضيف حافل إلى هذه التركيبة، ما يخص هذه الغرفة بالذات. رائحة زيت جوز الهند في شعر رأس أحدهم. وبخاخ لحساسية الصدر يستعمله شخص ثالث بين وقت وآخر. صاحب الرأس المدلل قال أن اسمه اختر مسعود وكان ذاهبًا في زيارة لصديق دعاه لقضاء السهرة عنده. أما الشخص الثالث فهو مصري يعمل في معمل جبس للديكور. ثم جاء شخص رابع بعد صلاة المغرب طويل للغاية، ويلبس ثوبًا أبيض وشماغا يلفه حول رقبته. لم يتكلم بكلمة واحدة بعد أن ألقى التحية، بل ثبت عينيه على الجدار الخلفي المعتم بعض الشيء وغاب في صمت طويل.

وعلى حصير متسخ، هبط سيد البعوض من عليائه، ونادى أن تلحق به كل بعوضة تستطيع الطيران والنيل من

العدو.. ومن الثقوب.. من على أسطح الجدران، ومن داخل دورة المياه في آخر الممر، توافدت الحشــود الجائعــة دون تأخير. فالغنيمة. بسيقانها وأيديها ومقلها الناعمة تتكاثر فــي الظلام. ووهب سيد البعوض أقدام الموقوفين الجدد للبعوض البطيء المتقدم في العمر ليتسنى له الظفر بنصيبه من الــدم والهرب في الوقت المناسب. أمــا البعوضــات اليافعــات، المدربات على اجتياح المناطق الخطــرة، فكانــت أيــديهم ورقابهم مجال صيدها المفضــل. وكــانوا يســمعون أزيــز الخراطيم وهي تتمدد وتثقب الجلد بإبر حادة ومجوفة، وكانوا يحسون بجزء من دمائهم تصــعد إلــى جــوف البعــوض، فيغشاهم الخوف من السقوط على الأرض أمواتًا. ويحدث أن يسمع أحدهم مجموعة من البعوض تتهارش فيما بينها للحــد من فوضى النهب المتبــادل. وحــدث أن ثبتــت بعوضــة خرطومها تحت أذن حاقل وشرعت في ســحب الــدم، فلــم تستطع الطيران بعد ذلك وبقيت فترة من الوقت وهي تطــن في المكان دون جدوى.

لم يتحدثوا إلا قليلاً. متفرقين في الغرفة كقبور أثرية، اكتفى كل منهم بعالمة وحربه الضــروس ضــد البعــوض.

وألحق بهم الصمت ما تلحقه الرطوبة بالمفرقعات. لم يتقدموا في سبيل التعارف المتبادل أبعد من كلمات قليلــة، باســتثناء الرجل الطويل الذي بقي على حاله لا يتكلم ولا يحول عينيه عن الجدار. ظلوا، كلٌ في معتكفه النفسي، يســحبون إلــيهم الكمية المطلوبة من الهواء، وينتظرون أن يفتح باب الفــرج. حافل امتنع عن الكلام لعلمه أن الآذان في غــرف التوقيــف بالذات مثل الهواء تسير في كل اتجــاه ولا تــرى بــالعين العادية. ونظر حافل إلى الرجل الطويل الصــامت، وركــز نظره على رأسه وحينئذٍ خطر على باله أن أذنيه لا بــد أن تعملان بشكل جيد ما دام أنه يصمت أيضًا بشكل جيد ودون أن يحرك شفتيه حرك كلماته قائلاً: هنا تقال الكلمــة وفــي مكان ما تصير مفرقعة في نفس الوقــت. وســادت المكــان أجواء فئران تحتضر. وتقدم السيد اختر مسعود خطوة إلــى الأمام لإعلان انفصاله النهائي عن المجموعة، إذ تلفع بردائه العريض واضطجع طلبًا للنوم. وهيج مشاعر حافــل نــواح جندب غارق في الواحدة يأتي من أحشاء الليل خارج النافذة.

ومن بعيد، لا يدري من أين، ربما من تحت النافــذة، أو من آخر الأرض، جاء الصوت. كان مسموعًا إلى درجــة

أنه أصلح من هيئته وتوجه إلى الباب يريد الخـــروج. كـــان صافيًا فوق ما يتصور، حد أن البعوض اشتعل فـــي رقبتـــه واحترق. والتفت كعاشق جهة الصوت:

- بل من تحت النافذة يأتي.

أكد لنفسه:

- ماذا أفعل؟. أين حـــذائي لأحضـــنها؟ هـــل هـــم الرسامون أتوا لنجدتي؟

الصوت يأتي من تحت النافذة بالضبط. صوت مفرقعة لا ريب. وأكد صحة إحساسه بأنه ناجٍ. وتذكر، وليس يدري كيف حدث ذلك، ما قاله عنه أصحابه من أنه إنســـان غيـــر عادي. لكنه لم يقف ليسأل نفسه ما إذا كان ذلـــك صـــحيحًا أم مجرد ترهات مساطيل؟. لا يوجد وقت كـــافٍ للســـؤال. وهمس في فرح:

- مسلط إذًا جاء. نعم، هذا هو مسلط. إنهـــا نفـــس طريقته في تفتيت المفرقعة إلى أشلاء. يرمي بهـــا في الهواء في اللحظة التي بها تنفجر. لم يرض أن يتركني في التوقيف أكثر من ساعتين، بـــل جـــاء يبشرني بخروجي الوشيك. لا بد أنه كان خلال.

الساعتين الماضيتين يسعى لإقناع عمّه العقاري الكبير بالتوسط لدى الضابط في بيته لإخلاء سبيلي بكفالة.

حدث ذلك منذ ساعة. نعم. وكانت الحركة في المدخل ومكاتب المناوبين تشير إلى أن ساعة قدوم الضابط مرت منذ وقت. لكنه تأخر كثيرًا، كما لاحظ ذلك صف الضابط المناوب، السعال الحاد الذي عرف حافل أنه كان يأتي من خفير على باب المدخل، حل محله صمت رسمي وأجواء احتفالية مرتبة. طلبوا منهم الوقوف في الغرفة منذ ساعة ووجوههم جهة الممر ليتصفحها الضابط عند تفقده المسائي المعتاد للموقوفين. عرض ضروري لإظهار الوجوه المحبوسة ضعيفة ومبددة أمام الضابط ولتقول له أيها المسئول العظيم تأخرت عن أداء واجبك فينا. كان حافل الأول في مجموعته، إذ وضع وجهه بالضبط على سياج فتحة الباب الصغيرة، ليراه الضابط بوضوح. لكنه لما تعب من الضغط على قدميه، سلم نقطة المراقبة لزميله المصري وسب الضابط.

- الآن، ماذا أفعل بك يا مسلط؟. أنت جُدري كالشاي لطيف ورحيم للغاية. جَرب في عز الفزعة

والطيبة. في مـــادة الكيميــــاء ســـوف أســـاعدك بلا حدود. أسهر وإياك علـــى مراجعـــة أصـــعب المواضيع وسوف تنجح يا لئيم.

نادى حاقل صديقه في سره، وقد امتلأ قلبه بدم جديـــد متدفق لم يحس به من قبل.

وجاء صوت مسلط من الخارج.

- ننتظرك في حوش المساكين.

(٤)

رأته داخلاً، فنادته. أدارت عجلات كرسيها المتحــرك ناحية الصالة نصف المضاءة. بدت له فــي آخــر الصــالة أصغر جسمًا من المعتاد. نبع صوتها مــن أوتــار مطهــوة بالحزن.

- تعال يا حافل أريدك هنا.

وأشارت إلى فراش في الصالة بالقرب منهــا. بقــى واقفًا في مكانه عند الباب. في ذهنه انفــتح دفتــره الملــيء بالأخطاء والدوائر الحمر. في يدها تحفظ العلامة، وبأصابعها تمحو الدائرة الحمراء الموصدة على خطأ سابق. يتم العفــو بلا ضجيج من قبلها، أما هو فكان يعلم أنه سوف يعود ثانية بالجلد المرقع نفسه للولد المذنب، وسوف تنغلق دائرة جديدة على خطأ جديد. ورغم ذلك، لا تتذمر.

دفعت عجلات الكرسي شهورًا طوالاً في أثر أبيه، ثم شهورًا طوالاً في أثره، ولما تعبت يداها من الدفع، اكتســى قلبها لحمًا جديدًا يشبه الدموع فكفت عن الملاحقــة. لزمــت بيتها الصغير برهبانية فتيلة في سراج. غير أن عينيهــا مــا برحتا رغم مشاكل النظر تتفقدان الباب كل يوم.

- تعال يا حافل يا ولدي.

لم يرد لها أن تتعب في طرح الأسئلة. كان يعرف أنها للغاية قلقة عليه. تأخر، فترعتْ سلسلة الباب ليبقى مفتوحًا وتبقى هي بانتظاره على كرسيها أمام غرفتها حتى يعود. كانت ترتدي "مذيل" عدنيًا فاتح اللون، يراه للمرة الأولى. وعلى قدميها يجاهد جوربان صوفيان بنيا اللون، في البقاء فوق الكعبين حتى وقت الوضوء القادم. كانت تنتظره.

قبل يديها ورأسها وجثا بجوارها وهو يفكر في أن يحكي لها ما حدث على النحو التالي:

- مسلط صديقي وقع في مشكلة سوف أختصرها لك لئلا تتعبي من سماع التفاصيل. ذهب لعيادة الأسنان لحشو ضرسه لكن الطبيب تأخر. انتظرناه حتى جاء، وعندما كشف عليه نصحه بخلع ضرسه لأنه متعفن من الداخل كما يقول. لكن مسلط لم يوافق وخرج من عنده لعيادة ثانية، ونفس الشيء قال له الطبيب لا بد من خلعه ولنفس السبب. رفض أيضًا، فخرجنا إلى السيارة وهناك وجد سيارة المرور عندها واقفة. طلبوا منه

الرخصة والاستمارة أولاً وقبل كل شيء.. سألهم لماذا؟، فتضايقوا من سؤاله، وأمروه ألا يضيع وقتهم وأن يعجل بإعطائهم الرخصة والاستمارة. لما أخذوها منه أمروه أن يلحق بهم إلى إدارة المرور ثم قادوا سيارتهم بسرعة منسحبين من الموقع. إلى هناك لحقناهم، ووجدنا أن السبب هو وقوف السيارة أمام العيادة الأولى في موقف خاطئ. يحلف مسلط أنهم ما صدقوا، لكنه سدد قيمة حشو ضرسه لحساب القسيمة في النهاية ورجع بضرسه كما هو إلى البيت، لا هو الذي قلعه ولا هو الذي سلم من المخالفة.

لكن ماءً باردًا في سطل، سيشعر أنه ينسكب على رأسه، تقديرًا لجهوده في إخفاء الحقيقية. لا يجادل في أنه ما من حقيقة لتبرير هذه الحيلة في التضليل، أوضح من حقيقة أنه بالفعل عاد إلى الكذب مرة ثانية، عليه إذًا، أن يحك رأسه كالمعتاد. أن يفرقع أصابعه أمامها، ويتهرب من النظر إلى عينيها مباشرة بكلمات قصيرة، يجب عليه أن ينهار كما في المرات السابقة، ويعترف بما حدث بالفعل. مسلط مَن،

ومرور ماذا، بالضبط؟. أليس يجلس متربعًا على فراش الصالة نفسه الذي لا يمنعه من التهامه ليخفيه عن أنظاره ويرتاح منه، إلا لأنه يقدم له هذا الجميل الفادح؟. الاعتراف فوقه، بأنه يكذب؟.

لكن، كانت ستجن إذًا، وتصيبها رعدة العاجز عن فعل شيء. هل سيخبرها أنه كان في الحبس؟. سيكون أسهل لها أن تسقط من الكرسي على رأسها، ولا تسمع أنه دخله أو مر بالقرب من قضبانه، الحبس عندها للناس الرديئة. الحشاشون والسكارى فاقدو الإيمان. أو بكلمة واحدة، الناس "الصايعة" الذين لا أهل لهم ولا مأوى. أما هو فليس في نظرها كذلك ولن يكون . له بيت، كما تقول له دائمًا، وله أهل. له أب وأم ما زالا على قيد الحياة، وما زالا قادرين على الاهتمام به. كلا، ليس الحبس بالحكاية المناسبة للموقف، هو ليس بحشاش، ولا سكير فاقد الإيمان ليدخله. إنه مجرد لاعب مفرقعات لا غير. لاعب مفرقعات، يدخل الحارة كما يدخل بيته، ويختار منها البراح والمساحات الفارغة، تقول له لا تصل إليّ أخبار مزعجة مثل صواريخك، ويعترف بأنه لم ينجح في منع ذلك، لكنه، في

عينها رغم كل شيء، ليس شريرًا. لا يستحق الحبس على الإطلاق. إذًا، الحكاية عن مسلط لا تؤذي. نهايتها طريفة ويمكن أن تهدئ من توترها وحالة القلق التي لبستها.

وسرد لها القصة، متصنعًا المرح رغم مبالغاته في تصوير عذابات مسلط وتآكل ضرسه. لم تقل شيئًا لما حكى لها، بكذبة إضافية صغيرة، أنه رأى أخت مسلط "صيته" في المنزل تعمل الشاي لهما، ولم تعلق بكلمة، بل سألته عن أبيه. وهل رآه؟. ومتى؟. وهل أخبره عن أنبوبة الغاز التي رفضت أن تعمل فجأة؟ ثم أخرجت من جيبها علبة علاج السكر "دونيل"، وكان قد نفد معظم حبوبها، فابتلعت حبة. قالت له أنها ليست مرتاحة ولن تكون مرتاحة ما دام أنه في الخارج طوال الوقت وليس بالقرب منها. باقي الأشياء بسيطة. قالت ذلك سكتت وعلق حافل على كلامها في سره متسائلاً: باقي الأشياء بسيطة؟ وأجاب: ربما. وكان سيوافقها الرأي فيما قالت إلا أن يكون غياب أبيه من ضمن تلك الأشياء البسيطة. ليست تستطيع إنكار أن رجلها الوحيد في حياتها، غاب في عباءة امرأة أخرى شابة وجميلة وتدب على

قدميها، وبقيت هي على كرسي متحرك في بيت فارغ. لن يكون أبوه من أشيائها البسيطة أبدا رغم ما فعل بها.

بعدما رجلاها كفتا عن الحركة، وصار عبئًا عليها حمل جذعها السفلي خارج الكرسي المتحرك على إثر مرض غريب ومحير، حلق هو شمالاً وحط في بادية الشام. بعد خمسين ليلة، عاد بزينب، فتاة طويلة يتعثر وجهها في لبس "البرقع" الذي فرضه عليها حال عودته. عيناها الزرقاوان أضافتا إلى الألوان المعروفة للعيون في الحي، اللون الأزرق، وهو ما ظنه بعض النساء تركيبة شامية لها علاقة بالسحر والسيطرة على الأسرار. فاللون الملحي للعيون، وهو اللون العسلي، يكاد يكون اللون السائد بين النساء الذي تشتهر عنه ملاءمته للامبالاة والبرودة العاطفية. أما اللون الأسود فللكحل والمفاخرة وإشعال الحسرة في قلوب بعضهن البعض. اللون البني هو لون الشبق الجنسي في سن العشرين، ثم يخف شيئًا فشيئًا إلى أن يتحول في بعض الأحيان إلى تراخوما في سن اليأس، وعلامة للموت في عمر الستين وما فوق. وبسبب عيني زينب الزرقاوين، ولون بشرتها الأبيض أطلقوا عليها لقب "النصرانية" حتى عرفت به

وابتلع اسمها في الحي والأحياء المجاورة. ومنذ مجيئها، تحولت العلاقة بينها وبين ضرتها المقعدة إلى ما يشبه العلاقة بين عمودين متجاورين يحملان سقف بيت واحد لكنهما لا يلتقيان أبدا، ولو التقيا لسقط البيت على من فيه. بهذه الطريقة في التعايش، انفصمت عروة الباب الأول، وتحولت الحياة بداخله إلى صرير مكتوم لعجلات كرسي تحمل ثقلاً لا فكاك منه.

تناولت خبزًا أسمر مع الزبادي، وشربت كوبًا من الماء. في الخارج، شهر الغبار أمواسه وراح يخدش بها المصابيح والوجوه العابرة، ولعبت الرياح بشعر القطط فوق الأسوار، وقرعت الأبواب المتداعية في البيوت الطينية المهجورة. ومن خلال المنور، دخلت إلى نافذة الصالة فحركت الفراش وارتطمت بظهر حافل الذي كان قد أخذ من يد أمه الكوب وعزم على وضعه في مكانه بالقرب، من الثلاجة. لحظتها، اشرأب في قلبه مبرد قلق وحزن، ثمة يد ثقيلة على الباب تدقه بإلحاح شديد. لما فتحه، وجد أباه يقف على العتبة الصغيرة بملابس الراحة. قرأ فيها في وجهه بوادر أزمة جديدة. وأيقن أن مطرقة الخصام دقت ساعتها

لتعمل اللازم بين أفراد العائلة كالمعتاد. أبوه مغضب مما وقع له في الشرطة. لا شك في ذلك. لا بد أنه علم بالأمر متأخرًا كعادته، ولذلك جاء ليوبخه على ما حدث. ماذا يفعل ليتحاشى رؤية أمه وهي تنتحب؟. وقرر أن الحل المناسب هو أن يخرج من البيت. لكن أباه. الذي حمل في قلبه غضبه العارم مما حدث، ما كان ليسمح له بالخروج قبل أن يفهم منه الأمر. عندها تراجع حافل إلى الصالة وقد بدا عليه التوتر. كان في نيته أن يستدرجه إلى داخل البيت، ليمنحه فرصة الخروج من الباب في الوقت المناسب

في تلك الأثناء، كانت أمه تراقب الوضع بصمت مشوب بتوجس وريبة. ولم يمهلها الرجل لتبديد قلقها، وكأنه أراد أن يؤكد حضوره بتأكيد أن كل شيء في البيت لا يصلح أن يبدد المرء قلقه من أجله. إذا سرعان ما لامها على مكوثها يومين إلى جوار بوتاجاز لا تعمل أنبوبة الغاز التي تخدمه، ولمح إلى أن الباب غير مقفل بإحكام، وكان من الممكن أن يدفعه بقدمه، لو أراد، ليفتحه على مصراعيه. كانت لهجته معبأة بكلمات رجل واثق من أن كل شيء أمامه، كان على ما يرام في السابق. لكن إهمالاً وقع في غيابه، أدى

إلى نتيجة لم يكن يتصور أنها ستحدث في بيته. ثم استدار إلى حاقل ليسأله لماذا كان هناك في السجن بمبنى الشرطة؟. غرفة التوقيف، بالنسبة إلى حاقل، غير السجن. هكذا يفهم الأمر. الحبس بالنسبة إلى أمه مكان سيئ للغاية لا يدخله إلا أسوأ الناس. الحبس وليس غرفة التوقيف. هل كانت أمه ستفهم الفرق على هذه الشاكلة؟. وخطر له: لو شرح لها أن غرفة التوقيف لا يدخلها المجرمون الكبار في الأصل بل هي لرجال أقل خطرًا في البلد وأضعف تأثيرًا، كمن يتورط في عراك في الشارع، أو في حادثة نشل عابرة، لو شرح لها ذلك، لربما هان عليها وقع الخبر. إنها مرحلة إجرائية خاضعة لنوع الجناية ومجريات التحقيق مع أناس عاديين وبسيطين يسهل وقوعهم بسرعة في أيدي الشرطة. وفي الإجمال، لا يتعدى اعتقال الشخص فيها أيامًا معدودة.

وهو احتجز فيها، ليس لأنه مجرم بل لأن بلاغًا قدمه إلى الشرطة بعض النافذين في الحي يشكون فيه منه كمصدر إزعاج لا غير. سيضطر إلى شرح ذلك لأمه في وقت لاحق، إذ أن هذا الوقت غير مناسب على الإطلاق. فأبوه يريد منه إجابة محددة، وهي الإجابة التي حالما تسمعها ستجد

نفسها أمام لبس حقيقي لا يمكنها فهمه. هل كان في الحبس أم كان في مكان آخر له اسم مختلف؟. ما يعني أن حكاية مسلط سيتساقط عنها ريشها الصناعي في الحال وتبدو لناظريها فجة ومتهالكة. وذلك أسوأ ما في الموضوع، حيث أنها لن تسامحه على كذبة لم يعترف لها أنها كذبة في وقتها، أما في نظر أبيه فالأمر سواء. لا فرق عنده بين غرفة التوقيف والسجن العمومي. لا فرق عنده بين موقوف لمخالفة مرورية ومسجون بجريمة قتل أو بجريمة تهريب مخدرات. إنه من ذلك النوع من الرجال الذين يرون أن من العار على المرء أن يدخل السجن، وأن من المعيب للشخص السوي أن يتم استدعاؤه إلى مقر للشرطة للتحقيق معه في أي شأن من شئون الحياة. وبالنسبة له، فقد حدث العار ووقع الأمر المعيب. ابنه يدخل السجن. والأكثر إيلامًا هو أنه لم يعرف بالأمر إلا من آخرين ليست تربطهم به علاقة وثيقة. ثم أن يعمل على إخلاء سبيله بدون علمه، ويطلق سراحه في غيابه، فذلك مما لا يمكن احتماله.

وقعت عينا حافل على الباب، فرأى السلسلة النحاسية يتدلى مزلاجها الصغير في صمت. عندها فقط، علم أن الباب

ليس في وسعه أن ينغلق بمقبض اليد العادي. فاللسان الداخلي لمزلاج الباب رغم ما يبدو عليه من حالة جيدة، لا يصل إلى التجويف الخاص به في عضادة الباب الخشبية المقابلة. ذلك يشير إلى أن السلسلة إنما وضعت لإغلاق الباب بشكل أساس، وليس لتعزيز وضعه وهو في حالة إغلاق محققة. أفزعه مرأى الفراغ بين المزلاج الداخلي للباب والتجويف. وتساءل منذ متى والباب على هذا الحال؟. وفيما يشبه حالة من التهكم اجتاحته، لاحظ إن الصالة ليست الوحيدة التي تستقبل الباب، بل أيضًا غرفة أمه إذا ما انحرف الداخل قليلاً إلى اليمين متخللاً بقعة من الظلام تفصل بين الغرفة والباب، ولا يصل إليها ضوء المطبخ المتروك مشتعلاً طوال الليل. أما غرفته البعيدة عن الصالة والباب معًا، فلا ترى من مكانه الذي وقف فيه.

كانت الرياح في الخارج، ما تزال تلتهم الطرقات والأرصفة. كانت تحقن الجو بذرات هائلة من الغبار تجيء من صحارى على التخوم. بسببها تحولت أضواء المصابيح إلى اللون الأصفر الباهت، وعلى الأرجح، شقت لها أخاديد قصيرة في الظلام تمارس فيه تأرجحها الصامت منذ وقت.

وفي الشارع المجاور، وهب كرتون فارغ جوفه للرياح، فوهبته الشارع كله.

أعاد الأب سؤاله في توتر ظاهر، بينما كان يفحص التوصيلة التي تربط البوتاجاز بأنبوبة الغاز المركونة بالقرب منه. أخبره حاقل بالسبب موضحًا أن ثمة اشتباه حدث في الأمر، حيث لم يكن المقصود توقيفه بل تحذيره من اللعب بالمفرقعات في المنطقة المكتظة بالسكان. لكن بما أن الضابط لم يصل إلا متأخرًا، فقد جعلوه ينتظر مع آخرين في الداخل ريثما يأتي، ثم أخرج حاقل ورقة مطبوعة بحروف واضحة، قال أن المناوب قدمها له، تبين ضوابط استيراد الألعاب النارية واستخدامها. غير أن كلام حاقل، كان بمثابة أن تعانق النار مزهرية من البارود، إذ سرعان ما انفجر غضب أبيه بصورة عنيفة على شكل كلمات مبعثرة رغم أن بساطتها تدفع معانيها في اتجاه واحد، هو الاتجاه الذي يقف عند نهايته حاقل. قال أنه طالما ردد بينه وبين نفسه أنه لا ينفع في شيء سوى الركض في الشوارع طوال اليوم وراء تلك الألعاب التافهة. وقال أنه يئس منه بعد هذه الحادثة ولذلك فإنه لا يريد أن يراه من الآن فصاعدًا، لئلا يفقد أعصابه

ويلحق به ضررًا كبيرًا في جسمه. ثم وهي تـدفع كرسـيها بينهما، ألقت الأم بصوتها في معمعة الموقف، معترضة على الأسلوب الذي يقدمه زوجها لحل مشاكل العائلة. ذكرت أنها لا ترضى أن يغادر حافل البيت ولو اضطرت إلى النوم في الشارع هذا المساء.

فيما هي تتكلم، كان يصر الكرسي تحتها مرة بعد مرة، وكأنها تريد أن ترفق مع الكلام مظهر جسمها القلق الذي لم يحتمل الخصام في بيتها وبين زوجها وابنهما الوحيد، فـراح يتململ الجسم العاجز فوق الكرسي فحسـب، مائـة وسـتة وسبعون سنتيمترًا، وخمسة وسبعون كيلو غرامًا، من اللحـم والعظم المتكوم بعضه فوق بعض منذ وقـت، اسـتفاق الآن وجاهر في خرق العجز الذي يعانيه، لكن في النهايـة، لـم تستجب شبكة الجهاز العصبي للنداء. ثمة فجوة كبيرة بـين الكتلة ونخوة العصب تبتلع كل استغاثة تجيء. ومثلما هـي الآن الفجوة كبيرة بين الأب وابنه، خيل إليها أن المحصـلة النهائية لقدراتها على إشراك جسمها في انفعالاتها النفسية، لن تكون أبعد من حكة طفيفة بقدمها على المسند المعدني الـذي يسند أخمصها. لن تكون أعلى من مقبض باب الثلاجة فـي

المطبخ. ولئن كانت تمد يدها لتناول كوب الماء المعلق في دولاب أوانيها، فلن تكون القدرة في تحرير جسمها من رقاده الطويل، بالقدر الذي تستطيع أن تملأ به الكوب بالماء. وتمتمت: يا رب.

وفي المساحة الضيقة التي تفصل بين الأب وابنه، أجهشت بالبكاء ورقّشت روحها آلام الفقد والعجز عن فعل أقل القليل. رغم ذلك، لم يخنس غضب الأب بل وجه لها الاتهام بتدمير رشد الولد بسبب تدليلها إياه منذ الصغر وتركه على راحته في كل وقت. وخصف الغضب وجهه فجعله في لون الزعفران الغامق، وتفاهة صفيح من النحاس. لم يعد يدري ما يقول من فرط استخدامه الكثيف لعضلات لسانه في البقبقة، والصفير، وكز الأسنان على كلمة كان يريد أن تكون كلمة أخرى، والخوار من طرف الحلق بقصد النحنحة وترطيب الحنجرة، كان محض قصبة بشرية تخرج من جوفها كرة من الكلام الوضيع والسافل. الزوجة في نظره، كرتون من الحاجات الزائدة، غلطة حياته الأسوأ، ناكرة للجميل، والولد في نظره، عاق، متسكع، مشروع نزيل سجون، ومن يدري، فلعله أصبح متعاطيًا للمخدرات، وكان

يتكلم كما لو أنه أراد نطق أكبر قدر من الكلام في وقت أقل. كأنه بذلك الفعل كان يسير في إثر وصفة علاجية لاختبار استجابة الوعي لبعض القدرات الباطنة وهو في حالة انفلات لغوي قريب من الهذيان.

كبرت أثافي القدر على النار فالتهمتها، وطاح القدر من علياته في فمها الأحمر الوهاج. ما كان يفترض أن يكون عشاءً هادئًا على فراش من القطن في صالة، صار مطرقة تسحق الرعوس على فراش من القطن في صالة، الآن تأكد لحافل أن أباه بفعله هذا، لو كان صاروخا، لكان في هذه اللحظة عند النقطة التي يصبح فيها أشلاء. بخبرته في إطلاق الصواريخ، قدر أن قوة الدفع عند أبيه كانت من المتانة بحيث لا يمكن المراهنة على فشل التجربة. لقد جاء ليعلن لهما أن الحياة زرقاء العينين واسمها زينب من الآن فصاعدًا. هو وأمه ليس يمكنهما بعد الآن طي سجل العائلة تحت اسم الأب وخصوصًا أمه التي وصفها بالحضرمية التافهة. ذلك يعني أنه كان ينتظر أن يشعل أحدهما عود الثقاب المناسب ليرى بعينيه كيف تلتهم الشعلة اسم الأم تحت بند زوجة لتصبح في قيد الأحوال المدنية في حكم مفرقعة

كانت موجودة واحترقت. أمه حضرمية تافهة، ذلك يعني أنها طالق. وهو نزيل سجون، ذلك يعني أن عليه ألا يعول على أحد تحت بند أب على الإطلاق. فماذا بقي في الجلباب من مفاجآت؟

كانت يده في جيبه، عندما عبثت أصابعه بمفرقعه عرف من حجمها أنها من نوع"k٠٢٠١" الذي يشتعل بمجرد حك طرفه الحساس بعلبة كبريت. عندها فكر فيما قال عنه أتربه، بأنه إنسان غير عادي. إن مجرد وقوع أصابعه في الجيب الذي تختبئ فيه هذه المفرقعة، وفي نفس اللحظات التي يعيش فيها أحد أغرب أفكاره عن أبيه، ليدل على أنه حتى في الأوقات الحرجة ثمة أمور غريبة وغير عادية تحدث له. وإلا ما معنى أن يشهد هذا التوافق المدهش بين حالة أبيه ودلالة المفرقعة المختبئة مصادفة في جيبه دون أن يخطط لذلك أو يعلمه؟. كلاهما ، أبوه ، وهذه المفرقعة، يحمل طرفاً حساساً للغاية ما أن يحتك بالسطح المناسب حتى يشتعل، كلاهما يحمل اللون الأصفر إذا ما أخذ بعين الاعتبار الخطوط الصفراء العريضة لبيجامة أبيه. خلال كلمات قليلة، ينفجر أبوه بعد أن وصل طرفه الحساس غايته في الاحتكاك

بالسطح فيما يخص علاقته المتردية مع أمه، ثم يلــوح بيــده مودعًا، كان من فرط انشغاله بالفكرة يتساءل، وكان من فرط حزنه يستعلم: ترى، ماذا يعني ذلك في عــالم المصــادفات الغريب؟!.

وانحرف جهة المطبخ الذي كان عن يمينه، ثم تنــاول علبة الكبريت وأشعل المفرقعة، دوى صوت الانفجــار فــي عمق الصالة الصغيرة التي كانت بالكاد تتسع لصــوت أبيــه الغضوب. فورًا، يغمر الثلاثة صمم كثيــف، وفــي لحظــة ينقشع. كانت لحظة فناء حقيقي بالنســبة لــلأم. شــعرت أن جسمها انهمر من أعلى ، وتفتت كالقطن في الصالة. ثم خيل إليها أنها خرجت منه أو شيء من هذا القبيل، ثم انتبهت. أما الأب، الذي انزلقت من إحدى قدميه فردة الحذاء، فكمــا لــو دخل مكرهًا في برميل، أحنى جذعه حتــى لا مــس رأســه ركبتيه وأغمض عينيه بينما الخدوش والكدمات في جســمه تنتشر، أو هكذا تخيل. ثم، أحس أنه وحيد وضائع ، أو هكذا تخيل. أو .. ربما لم يحدث مما سبق شيء. بل لــم يحــدث شيء على الإطلاق. أخيرًا قرر أن من المؤكد أنه خرج من الثقب الصوتي مرتجفًا، ملوي الجذع كجورب. ثــم جــاءت

موجة الدخان في مرحلة شيخوخة كريهة حتى السقف. ثم نخرت الأنف الرائحة السوداء المارقة. بعد ذلك، استعاد المكان بحذر، وقته العادي، فانخرطت الأم في البكاء وألبس الأب قدمه فردة الحذاء. وكان حافل قد غادر المكان وليس أحد يدري متى؟

وعلى الفراش، جلس الأب ليستعيد توازنه ويعطي وقتاً للصفير الذي ملأ أذنيه ليتلاشى. ومر وقت وهو صامت ينتظر من قلبه أن يهدأ ويكف عن القفز في صدره. الشهيق والزفير عنده طبيعيان، لكنه لا يحس بالهواء يدخل ويخرج من رئتيه. صدره يرتفع وينخفض، لكنه غير ممتلئ بالحياة، ها هو مخلخل العظام داخل بيجامته، يتشبث بالبقية الباقية من قوته ليرفع رأسه وينظر حوله. رويدًا رويداً، يتسع بيته تحت بصره فيضم الفراش والمرأة والصالة والغرف الأربع والحوش. ويقف كل شيء مما رأى بلا قيمة أمامه، ولا اعتبار. يعيد النظر مرة أخرى. الفراش، والمرأة والغرف الأربع والحوش. ويقف كل شيء مما يملك في هذا البيت بلا قيمة ولا اعتبار. أفضل طريقة لإعادة النظر فيما حوله هي أن ينهض أولاً ويقف على رجليه لئلا يصدق أنه

أصيب بالشلل أو بالجنون. يقف بالضبط كما كان يقف قبل الانفجار. يمشي على قدميه مضافًا إليهما وزن وحجم الحذاء يهمل المرأة التي كانت تنشج، ويتقدم بمشية عسكرية إلى الباب ثم يعود أدراجه إلى مكانه. إنه بخير وعافية. لا شلل، ولا جنون، ولا حتى آلام في المفاصل. لكنه يشعر أنه أهين وسويت لحيته بالأرض في بيته. يدرك لماذا اضطربت نظرته إلى منزله؟. لأنه أهين فيه، ومن قبل ولده، وطاحت على الأرض هيبته بشكل غير مسبوق. ماذا يفعل الآن؟. يبصق على البلاط، ويسأل نفسه: ماذا يفعل الآن؟!. هذا الولد العاق يجب أن يوقف عند حده وإلا تطورت الأمور إلى الأسوأ. حدث نفسه. كان في لجة أفكار متضاربة عن الكيفية التي تكفل له استعادة ولده، وهيبته معًا. فتى في العشرين أو الحادي والعشرين ، لا يدري، في قوة بغل، يطير من تحت إبطه ولا يستطيع أن يعيده إلى إبطه لأنه كبر وصارت عظامه صلبة يخشى منها على أضلاعه. لو أعاده إليه فبأي طريقة يمكن أن يتعايشا؟ وأين؟

كانت الأم، بعد ما ذرفت دموعها على حده، قد دلفت إلى غرفتها وأغلقت عليها الباب. في الغرفة، وجدت

بانتظارها كلام زوجها عنها. كرتون من الحاجات الزائـــدة، غلطة حياته الأسوأ، ناكرة للجميـــل، فأحســـت أن انفجـــار المفرقعة كان رحيمًا لأنه وقع في الصالة وليس في القلـــب. ليس من مجال للمقارنة بينه وبين الانفجار الذي وقع في قلبها وعلى يد زوجها. نعم، شعرت برعب شديد من جـــراء مـــا حدث، لكنه مئات المرات يحدث في الشارع كل يوم، ولـــيس شعورها بالرعب بسبب حدوثه، وإنما لأنه وقع فجأة. أما ما قاله زوجها في حقها، فهو نار حقيقية وزوال مؤكد لا جـــدل فيه. وغمرتها مخالب سؤال: الآن بعد أن أصبحت عـــاجزة يتحدث عني كما لو أني قمامة في بيته؟.

وتذكرت بحزن اليوم الأول الذي رأته فيه يتحدث مـــع أبيها على دكة البقالة التي كان يملكها قبـــل أن يمـــوت فـــي حادثة دهس، وكانت وقتها لا تفكر في الزواج بل في العودة إلى حضرموت لتكمل دراستها هناك وتعيش عنـــد عمتهـــا للأبد. رأته بشكل جيد، تتذكر ذلك، لكنها لـــم تعـــر وجـــوده اهتمامًا إذ كان مستغرقًا في المحادثة بحيث كانـــت جلســـته مثيرة للضحك. وكانت من الأشياء التي لا تهتم لها في العادة كثرة جلوس الرجال مع أبيها، لذلك ما كانـــت تشـــد عينهـــا

الأشكال، وللوجوه الرائحة والغادية، بقدر ما كانت تحاول ألا ينقص شيء من قهوة أو شاي في الدكة. بعد يومين على زيارته الأولى عاد إلى أبيها، وانهمك في نفس الدرجة من الاهتمام الذي أبداه في جلسته الأولى، يتحدث، ويشير بيديه ويبتسم بأدب. في المساء عاد مرة ثالثة ومعه كيس تمر سكري وأطباق بلاستيك متوسطة الأحجام، ووضعها على الدكة ومضى . بعد أسبوع كلمها أبوها بشأنه:

- هو رجل مهذب ، أبوه إمام مسجد الحي، وهو أيضًا من أقرب الجيران وهو صديقي أيضًا، وقد سألت عنه زيادة في الاطمئنان ولم أسمع عنه إلا الخير، وقريبًا سيحصل على وظيفة حكومية، فما رأيك يا ابنتي؟
- ذلك يعني ماذا؟
- بعد سنوات قليلة جدًا، ستحصلين على الجنسية.
- لكني، لا أفكر في الجنسية، ولا أريدها، بل أريد العودة إلى "الصبيخ" عند عمتي كما اتفقنا يا أبي.
- وماذا ستفعلين هناك؟

- أكمل دراستي إذا قدرت وأعيش عند عمتي. ماذا في ذلك؟
- لكنا تركناها منذ زمن ، وعشت أنت طفولتك هنا، وماتت أمك هنا، وأتمنى أن تكوني سعيدة مع رجل قادر على حمل أعباء الحياة الزوجية أكثر من غيره. اسمعيني، إن أنت تزوجت هذا الرجل حصلت على الجنسية السعودية خلال خمس سنوات وصرت مواطنة طبيعية لك نفس حقوق المواطنين السعوديين في أي مكان. مالك ومال "الصبيخ" في الوقت الحاضر، ثم لا أحد يمنعك من زيارتها في أي وقت تريدين. هذه رغبتي أطرحها عليك والقرار بيدك قبل كل شيء.

تنظر إلى أشياء غرفتها. تصعد نظرها إلى السقف، ثم تهوى به إلى الجدار الذي أمامها فتبقيه للحظات مستقرًا عليه كما تفعل بعوضه خائرة القوى، ثم إلى ما بين قدميها تنظر وقد أسهبت في لف عصائب رأسها طردًا لصداع شره يمضغ رأسها من الداخل. حصلت على الزوج، وحصلت على الجنسية، وحصلت على الولد، لكنها لم تحصل على حقوق

الزوجة. حصلت على اليتم، وحصلت على الكرسي المتحرك، والآن حصلت على الطلاق كما لمّح بذلك زوجها. تركت "الصبيخ" وتركت الدراسة، وماتت عمتها هناك ولم ترها. أية خسائر وأية مكاسب يمكن الحديث عنها؟. كانت كمن يحدث نفسه من أشرف على الموت أو على الضياع سباحة في البحر. تمتمت: يا رب. يا واصل المنقطعين أوصلني إليك. يا قريب، يا مجيب دعوة الداعي. وانبسطت يداها على مستوى دموعها كما تفعل المزاريب مع المطر.

مع ذلك، لم تسترح ذاكرتها، بل غابت في إهاب فتاة رقيقة تزوجت منذ اثنين وعشرين عامًا أحد الجيران نزولاً عند رغبة والدها، وهي في سن العشرين. وقالت ذاكرتها، وفقًا لأحداث وقعت بعد عامين من زواجها أنها فجأة وجدت نفسها العنصر الوحيد الذي بقي من عائلتها حيًّا بعد موت والدها في حادث دهس غير مقصود. رأت نفسها، رغم ذلك، تضيء الغرفة لعائلة جديدة بجذور جديدة. اجتمع في مطبخها البوتاجاز والقدر والأرز والملح والزيت والبصل واللحم في يوم جمعة، وللمرة الأولى دفعة واحدة. وفي يوم السبت، ملأت خزانة ملابسها فساتين طويلة، وبلوزات، وتنانير،

وملابس داخلية، ورصفت أحذية جديدة لها في المدخل. يــوم الأحد جاءت بغرفة نوم مجهزة بوسائل ترفيهيــة وإضـــاءة خاصة. قلبت، يوم الاثنين، حياة زوجهــا بســيارة صــغيرة وساعة يد وطقم أقلام باركر وسبحة كهرمان. يوم الثلاثـــاء، قال لها زوجها: لم يتبق يا سجود من إرث أبيك شيئًا ســوى علب جبنة كرافت قليلة في البقالة. أما الباقي فقد صرفته كله في تجهيز البيت في ظرف أيام أربعة وكأنك تخشــين مــن شيء ما. بعد ذلك، قال لها: ثم إني ما كنت أعلم أن أباك كان بهذا الثراء. وبعد يومين قال لها: من أين اكتسبتم عادتكم في جمع المال بهذه المثابرة؟ وقالت ذاكرتها: لكن الذي مضــى لا يعود. وقالت هي: بالضبط مثل كرتــون مــن الحاجــات الزائدة أنا. وقالت صورتها في المرآة: وجهك يخيف لونـــه وشكله. وصر الكرسي بحركة من يديها ناحية المرآة. فــي الوجه حدقت بأسى شديد. سمعت في تجاعيده صياح ديكة في فجر قديم، شهد نوبة مخاض عسيرة أسفرت عــن دحــض اتهامات شنيعة لها بالعقم. ولدت حافلاً في قرية في طريــق الجنوب بينما كانت متجهة إلى أبها لقضاء عطلة الربيع مــع زوجها عند أخواله. بعد أن استردت وعيها كانــت الـــديوك

تصيح واحدًا بعد الآخر في حي قريب من المستوصف الذي صارت فيه أمًا. تتذكر أنها نظرت إلى النافذة التـــي كانــت مفتوحة فرأت أضواء واهنة لجزء من قريـــة معلقـــة علـــى السفح، تغط في النوم، المرات القليلة التي ذهبت فيهـــا إلـــى حضرموت من ذلك الطريق، كانت فيها المدن والقرى التـــي تمر بها تغط في النوم أيضًا. كانت الأضواء، مثـــل حبـــال واهنة تهتز بالقرى والأرياف التي تمر بهـــا لـــيلاً. أضـــواء واهنة في الليالي فحسب. ليالٍ تشبه ذلك الليل الذي صـــاحت فيه الديكة. تشبه هذا الليل الذي تصيح فيه وحدها.

تتساءل، لو أنها طلقت بالفعل فأين تذهب؟. وعند مـــن تسكن؟. وحافل، ابنها، هل ستراه بعد ذلك؟. والمحكمـــة لـــو لجأت إليها هل ستنصفها؟. والجنسية التي حصلت عليها، هل ستمنحها حقوقها كاملة في بلد يعـــج بالواســـطة وعلاقـــات المصالح المتبادلة كما يقول زوجها؟ إنها لا تخشـــى شـــيئًا، خشيتها من أن يصبح واقعًا لا مفر منه، انفصالها النهائي عن زوجها مطلق، لتصبح بعد ذلك بلا زوج، ولا بيت، ولا أهل، وهي في وضع صحي صعب. كانت الصالة قد توقفت فيهـــا الحركة، وكفت عن تضخيم نفسها بالأصوات والجلبة، فعادت

هادئة، بسيطة كما من قبل. في الماضي، كان يخطر لسجود أن الصالة عندما تضيق بالأصوات الزاعقة، تتغيــر، تتمــدد جدرانها وتتضخم كما هو حال الخبز في التنور. لكنها لم تشأ أن تصف ذلك الخاطر بأكثر مما يستحق في وقته. كثيرة هي الخواطر التي تمر عليها دون أن تتوقف عنــدها وتــتفحص عناصرها ومكوناتها بتعمق، ولذلك فلعله يصبح من الطبيعي ألا تصفها بأكثر مما تستحق. مجرد خواطر عــابرة ســيأتي غيرها بنفس الخفة وشفافية العبور ويمضي. لكنها أمام تكرر الحدث مرة بعد مرة انتبهت إليه وتوقفت عنــده. لا تــدعي سجود أنها تنبهت له لكونها تتميز بفطنة عالية ودقة شــديدة في الرصد والملاحظة. كما لا يمكنها أن تعزو توقفها عنــده إلى قدرات خارقة تكتشف بها الأشياء وتحس بحــدوثها فــي وقتها. إنه مجرد إحساس يقع فــي طريقــه ذلــك الشــيء، ويتراعش معه. يتواءم وذبذباتــه المتناهيــة فــي الضــآلة والسرعة ويستقريه من الداخل. يمكنها القــول أن الصــالة بالفعل لا تكون في أحوالها العادية وقت حدوث مشاجرة على أرضها، وتحت سقفها، وبين جدرانها الأربعة. تشــعر أنهــا على نحو ما تتفاعل مع ما يقع بداخلها من أحداث وما يكون

من أحوال. ربما يعود فهمها ذلك، إلى أن الصالة هي أكثـــر الأماكن في البيت التصاقًا بها، وحنوًا عليها ولـــذلك ألفتهـــا وتعايشت معها فصارت بالإحساس بها تعـــرف تحولاتهـــا. تستدرك: ربما. فهي ليست متأكدة من ذلك، وليست متأكـــدة من شيء آخر. بل إنها لم تعد متأكدة من أي شيء . ما هـــو الذي يحملها على مثل هذا الهذر؟ ألا يكفيها ما هي فيه مـــن حال؟!.

لم تتكلم، بل فتحت باب الغرفة لتتجـــه إلـــى المطـــبخ لتشرب شيئًا يبل ريقها. على الباب وجدت خادمتهـــا كأنمـــا كانت تتأهب لتطرق عليها الباب. أخذت الخادمةَ المفاجـــأةُ، وابتسمت، وتأخرت عنها لتمر. سألتها سجود عمّا إذا كانـــت رأت حافلاً يعود؟ أجابت الخادمة بالنفي. ودون أن تتوقـــف الخادمة عن الكلام أخبرتها أنها نزلت اللحظة من غرفتها في السطح لتطمئن عليها، ثم سألتها عن رغبتها في تناول شيء معين يمكنها عمله؟.. أجابتها سجود، كأس ماء لا غير. غير أن الخادمة، رغم ذلك، أعدت لها شاي نعناع بحماس ظاهر. وكانت قد نظفت الصالة ورتبتها بعد أن غادر مطلق المكان، وهيأت لمخدومتها مكانًا يليق بالصلاة وفيه وضعت جـــالون

زمزم صغير للشرب عند اللزوم ومصحف وعلبة منديل. بعدما اطمأنت على وضعها، ذهبت إلى غرفتها فتفقدتها. لما تأكدت أن كل شيء على ما يرام، صعدت إلى غرفتها في السطح لتكمل كي الملابس وترتيبها ومن ثم لتنام. في نيتها، كانت قد أزمعت أن تسألها عن الذي حدث، لكنها تراجعت خوفًا من أن تتهمها بالفضول الزائد ودس أنفها فيما لا يعنيها. إضافة إلى ذلك، لم تكن مخدومتها بحالة نفسية جيدة لتشفي غليلها في فهم ما جرى، عند ذاك أفرغت فضولها في صنع الشاي وعادت إلى غرفتها على أمل أن تفهم القصة في وقت مناسب.

نزع الشاي بحرارته، احتقان الشفتين، مزيجًا بذلك جدلاً كان سيبدأ مع الخادمة حول الذي جرى. كانت بحاجة للحديث مع أي شخص للتخفيف عن معاناتها ولو بمجرد أن تحس أن ثمة من ينصت لها فحسب. بيد أنها لم تشأ أن تحشر خادمتها فيما لا يعنيها ففضلت عض الشفتين وارتشاف الشاي في المطبخ مصغيةً للرياح في الخارج ولما يتدحرج في الطرقات من كراتين وعلب فارغة. الإصغاء إلى الرياح، وهي في ملاذها، يمنحها الأمن. يهبها السكينة المطلوبة

لجعلها تتخلص من التوتر والشعور بالوحدة بشكل أفضل. وحافل هناك، في مكان ما، لا بد أنه تسيطر عليه حالة من الجفول مما جرى. كانت تريد أنتفهم لماذا فجر المفرقعة في البيت، وبحضور والده؟. لم يعملها من قبل. نعم. لكنه لم يخف يومًا تذمره من الوضع. كان كثيرًا ما يسألها: لماذا أبوه تركها وهي في تلك الحالة، ولم يهتم لأمرها كما يجب؟. وكانت تجيبه: الرجل لا يترك زوجته إلا عندما يطلقها، لكنها المشاغل فقط التي تمنعه من الحضور. وكان يسألها: والنصرانية، لماذا لا تمنعه المشاغل من رويتها كل يوم والنوم عندها والخروج معها أينما تريد؟. وكانت تجيبه: أليست زوجته؟. وكان يجيب: وكذلك أنت.

ذات مرة سألها: لِمَ لَمْ يتزوج أبي بسعودية من جماعته؟ أليست بنات أعمامه فوق خمس عشرة فتاة كلهن صالحات للزواج؟. وفي المرات التي واجهه فيها أبوه، كان يهدد أباه بالسفر لحضرموت ويقسم أنه لن يعود إليه أبدًا. عندما تسأله هل هو جاد في كلامه، كان يقول لولاك لما عشت لحظة واحدة بالقرب منه. غير أن جرأته في إشعال مفرقعة أمامه، وفي بيته، كانت من الشدة بحيث تبدو بقية

الأشياء أمامها باهتة. بكلمات قليلة بدأ اللقاء مع أبيه، وبدوي مفرقعة ختم حضوره وغادر. لا بد أنه هناك، فـــي الأمكنـــة الفارغة المعتمة من المدينة، مثل طفل متشرد، يرتجف مـــن الوحدة ويبكي، لو كانت تستطيع المشي، لخرجت للبحث عنه في كل الأحياء حتى تجده. ولطرقت كل الأبواب، و لســألت عنه كل الأصحاب الذين يعرفونه في الحي. بهــذه الأفكــار وبمثل هذه الأسئلة، كانت تفكر وتسأل وهي في وسط المطبخ ووجهها ناحية النافذة، فجأة، سألت نفسها: منذ متى لم أغادر هذا المكان لغير عيادة طبيب السكر والضــغط؟. لا تــدري بالتحديد. ربما تجاوزت المدة الزمنية العامين. كانت تحســب الأيام عندما كانت شابة تسير على قدميها وتتابع التاريخ في التقويم، كل يوم كانت تنزع ورقة التقويم ثم تقلبها لتقرأ مــا على الصفحة الخلفية من حكم وأمثال وقصص طريفة. أمــا الآن فحسبها، أن تعرف أن الليل ليل وأن النهار نهار، وهي في بيتها، للمحافظة على أوقات الصلوات والصيام. لكن لماذا عليها أن تغادر البيت من الأساس؟ من لهــا فـــي الخــارج لتخرج إليه على أي حال؟

كان شاي النعناع المر قد نفد. وكانت قد وضعت الكوب على الطاولة. عندما رأته يقف على باب المطبخ، صامتًا يتأملها:

- حافل!

نادية تحت وقع المفاجأة. وأكملت:

- اقترب ودعني ألمسك وأراك بعيني.

قبل يديها ورأسها، ثم دفع كرسيها إلى الصالة وهو يعتذر لها عمّا حدث.

- لماذا فعلت ذلك، ولماذا أغضبت أباك وأرعبتني؟

سألته مستفهمة رغم ما طرأ على صوتها من نبرة عتب أجابها على الفور، وكأنه يقرأ من ورقة:

- تعرفين يا أمي، أني أريد أن أتغير إلى الأفضل. توقفت عن السهر إلى وقت متأخر من الليل. وبدأت المواظبة على الدراسة، وصرت أطيعك بشكل أفضل. بل صرت أنام في الصالة كما تعرفين لأكون قريبًا منك في أي وقت تحتاجين إلى مساعدة. صحيح، أنني بقيت لساعات قليلة في غرفة التوقيف. غرفة التوقيف هذه تقع في مركز

الشرطة. ليست حبسًا ولا في الحبس هي، بل هي غرفة تخصص في نفس الإدارة لمن يعمل شوشرة صغيرة، أو يقوم بخطأ عارض ويتخذ في حقه إجراء يناسب خطأه. أبى قال أنها سجن، وهي ليست كذلك.

حالما أوصلها مكانها المناسب في الصالة، قام بشد كابح الكرسي، وجلس على الفراش متربعًا، كالمعتاد، بالقرب من قدميها. وأكمل:

- أوقفوني في انتظار الضابط، لكن صديقي مسلط ساعدني في الخروج من التوقيف في الوقت المناسب.

- وكيف أوقفوك؟.

سألته دون أن تقتنع تمامًا أن ثمة فرق بين الحبس وغرفة التوقيف. كلاهما يحمل نفس المعنى ونفس المهمة. أي شخص يعرف ذلك. تتساءل فقط: أليس الهدف هو منع الشخص من الخروج والذهاب إلى المكان الذي يريد في أي وقت إلا بإذن من لديه الصلاحية في الأمر بالحبس وإخلاء السبيل؟. ليس هذا هو المهم، بل المهم هو لماذا يذهب

الشخص إلى هناك في الأصل؟.، هكذا فكرت بينما كانت تنتظر منه الإجابة على سؤالها. تنبهت قبل أن يجيب، إلى أن سؤالها كان يجب أن يكون لماذا أوقفوه، وليس كيف أوقفوه؟. عند ذاك. وكان قد بدأ في الكلام، قاطعته ملقية إليه بالسؤال في صيغته الجديدة. ارتبك بعض الشيء لكنه، على أي حال، كان قد بدأ حديثه في شرح كيف قبضوا عليه، حينذاك فكر في أنه يمكن أن يجمع بين المقصود من سؤالها وما بدأه من حديث. كنت في الأرض البيضاء المحفورة التي تفصل بين فيلاً العمدة والعمارة السكنية التي خلفها عندما جاءتني سيارة الشرطة فسدت على طريق الخروج، وكنت وقتها لم أكمل إشعال لفة "الطراطيع" التي كانت معي، فأمسكوا بي وصادروا ما تبقى معي منها، ثم أخذوني إلى مقر الشرطة.

وليهون عليها الأمر، أخبرها أنهم كانوا قد أخذوا ناجي ابن صاحب مخبز السلام قبل يومين من نفس المكان ولنفس السبب، وأعادوه إلى البيت بعد ذلك.، رشيد الرمان، أحد معارف محصل فواتير الكهرباء فائز الرمان، حكى له أنهم أمسكوا به ثلاث مرات، ومرة واحدة كانت من الدفاع المدني، وأردف حافل:

- ما كان ليحدث شيء لو أن الشـــرطة لـــم يبلغهـــا خبري مضخمًا ومبالغًا فيـــه. كـــل العـــالم تبيـــع وتشتري في "الطراطيع" ؟ لتشعل فيها النار وليس لتخزينها في المستودعات، أليس كذلك؟ ثـــم هـــل يريدونني أمارس هذه اللعبة في الربع الخالي مثلاً يا أمي؟. هل وجدت أماكن مخصصـــة لممارســـة مثل هذه الأشياء فيها المواصفات التي يريـــدون؟. طيب، لماذا لا يمنعونها من الدخول إلى البلد نهائيًا ما دام أن اللعب بها ينتهي بالشخص إلى الشرطة والدفاع المدني؟. لماذا لا يصلون إلى المـــوردين الحقيقيين ويلقون عليهم القبض مثلما قبضوا علـــي وعلى غيري، ليستريحوا من هذا العناء؟

نظر إلى أمه وارتسمت على شفتيه خطـــوط ابتســـامة عريضة قبل أن يقول:

- هل تصدقين يا أمي أن أبي واحد من هؤلاء الذين يتاجرون بها في الخفاء؟

التهمت وجهها المفاجأة. هل هذا معقول؟ مـــا كانـــت لتستوعب ما قال بسهولة، وقد رأت زوجها في الصالة يكـــاد

يتمزق من الذعر بعد انفجار المفرقعة. بل لم يخطـر علـى بالها لحظة واحدة أن يعمل رجل مثل زوجها، يغلـب علـى سلوكه طابع الجدية وقسوة التعـالي، فـي هـذه الصـنعة المستهجنة كما يصفها. لطالما سمعته، في هيئة يفيض منهـا مظهر الوقار، وهو يرفض وجودها ويندد بمن تـورط فـي ملء أيدي الأطفال بتلك المواد المزعجة والخطرة، بـدل أن يتعلموا ما يفيدهم.

- حقًا، هل أنت متأكد مما تقول؟

سألت ابنها بفضول كبير.

أجاب:

- هو لا يعلم أني أعرف ذلك عنه.

قال لها ذلك بشيء من الثقة والإحساس بقيمة ما يملك.

- وكيف عرفت ذلك عنه؟

طرحت السؤال عليه وهي تريد أن تفقه شيئًا واحـدًا، وهو لماذا زوجها، إن كان بالفعل يمارس هذا النـوع مـن التجارة، يكتم عنها هذا العمل؟. ما الذي يضطره إلى ذلك؟. هل هو الخوف عليها، أم أن سر المهنة يستدعي كـل هـذا

الحذر والتكتم لئلا تفسد عليه امـرأة مصـالحه السـرية؟. أم يعود ذلك إلى لا مبالاته بها التي عرفتها عنه:

- العم قائد الأشول، هو الذي أخبرني.

أجابها حافل بلا تردد، ثم شرح لها:

- في أحد الأيام، وكان مزاج العم قائد رائقًا، سـألته من أين تأتيك هذه الكميات الكبيرة من المفرقعـات يا عم قائد، وأنت كما أعرف لا تـذهب إلـى أي مكان، ولست بالرجل صاحب العلاقات لكبيرة في المجتمع؟. عندها أجابني بهـدوء: كلامـك عنـي صحيح، بل إني ما كنت أفكر أن يكون هذا مصدر رزقي بعد توقفي عن ممارسة مهنتي كبناء، لكـن ثلاثة أشخاص، كنت قد بنيت لهم عمـاراتهم فـي الماضي وبقيت عليهم مستحقات مؤجلة، طالبوني بالعمل كشريك في بضاعة يديرونها على أن يكون رأس مالي هو ما كان لي عليهم مـن مسـتحقات مالية، فوافقت. لكني اكتشفت أن بضاعتهم هي هذه المفرقعات التي تهرب إلى الـداخل مـن منافـذ حدودية، ويقومون باستلامها وتوزيعها، بعد ذلك،

على عملاء يثقون بهم في كل مكان. لم أوافق في البداية، لأني فكرت أنه إذا ما حصلت أية حركـــة من قبل الجهات الأمنية لتعقبنا، فـــلا أســـتبعد أن أكون الشخص الأول الذي يقع في أيديهم لكـــوني، كما تعرف لست من أهل البلد، وعلاقاتي صارت محدودة للغاية، لكنهم سرعان ما بـــددوا تـــرددي بتأكيد حمايتي من أية ملاحقة، وأن مـــا يصـــيبني سيصيبهم في الخير وفي الشر، عنـــدها وافقـــت. وهأنذا من سنوات عديدة أعمل كما تـــرى. أبيـــع فقط. أبيع عليك وعلى غيرك من الأولاد، وعلـــى النساء، والمقيمين الذين يبيعون بـــدورهم دون أن أتعرض لخطر حقيقي. يوقفوني ويطلقون سراحي، ثم يوقفوني ويطلقون سراحي، وهكذا حتى تعودت على المسألة. لحظتها، يا أمي، استبد بي الفضول لمعرفة هؤلاء الثلاثة الذين يتحدث عنهم، وكـــأنهم أهم من في الحي، وخطرت على بالي أسماء كثيرة لها وجهتها في الحي، مثل العمدة بريكـــان لبـــاد، وهزاع المعو، العقاري الكبير، عم صديقي مسلط

الذي توسط في إخلاء سبيلي، بل خطـرت علـى بالي أسماء مـوظفين مرمـوقين فـي البلديـة، والضمان الاجتماعي، ومصلحة البريـد، وخطـر على بالي اسم ضابط الشرطة الذي في حارتنـا، فسألته وأنا في غاية الشوق لمعرفة أسمائهم: مـن هم يا عم قائد هؤلاء الأشخاص الثلاثة؟. تصوري، عندما سألته هذا السؤال انتفض كما لو أني رميت في حجره مفرقعة تشتعل، وقال لي: وأنت مالك؟. كأني كنت سألته عن اسم زوجته في اليمن، أو عن أسماء الجن التي تأخذه على أجنحتها إلى المكـلا في كل ليلة.

وضحك حافل بصوت لم تكن أمه قد سمعته منذ زمن. وشعرت ببهجة إذا وجدت ابنها يقص عليها أحاديث النـاس، ويعلق، ويضحك، ويطرد شعورها القاتم بالوحـدة والعجـز وقهر الزوج، جلوسه بين قدميها، لم يغيره أبدًا، منذ أن يبس جذعها السفلي وحل به التلف. فـي الصـالة، علـى نفـس الفراش، وبنفس الجلسة، أي أنس ستشعر به في مكان آخـر مع سواه؟. لكنه مثل الطائر الطليق لا تبقيه الآفاق الواسـعة

في مكانه على الدوام. لا يكاد يقر بالبيت. يأتي من المدرسة، وبعد أن يتناول غداءه. يخرج من الدار. كـأن دارًا أوسـع تنتظره في الخارج. وهي شعرت باعتدال المزاج، وهـدأت عروق القلب بعض الشيء وهي تتصت لابنها فـي عمـق الصالة يحكي كما لم يحدث من قبل.

من خارج السور، سمعا صوت صاروخ يرتفع في ليل الشارع المجاور، ثم ينفجر بالقرب من سطح المنزل. أخذت وجه حافل ابتسامة مفاجئة، وبدر من جسمه حركة صـغيرة إلى الأمام، لكنه سارع إلى إخفاء انفعاله المباغت في جسمه، وأكمل:

- قال لي العم قائد: أنا هنا لأبيع لا لأتحـدث عـن فلان وفلان. سألتني عن المفرقعات فأجبتك، لكني لا أحب الخوض في أمور لا تعنيك. قلت له: أود فقط معرفة أسمائها من باب العلم بالشيء ليس إلا. رفض بشدة وأصر على موقفه. وفيما أنا منهمـك في محاولاتي معه لمعرفـة أسـماء الأشـخاص الثلاثة، سمعنا طرقًا على الباب فنهض، وكان من عادته أن ينظر من خلال ثقب في الباب إلى وجه

الطارق قبل أن يقرر فتحه، فلما نظر إلــى وجــه الطارق، مكث مليًا يحدق فيه. ثم عاد إلى بوجــه مضطرب وقال لي: أبوك عند الباب. وفي الحقيقة لقد صعقت واستغربت حضور أبي إلى عزبة العم قائد. خلته يمزح، لكنه أكد لي: أنه يقف الآن أمام الباب. قال لي ذلك هامسًا، ثم صــرخ للطــارق. طيب، طيب، دقيقة واحدة لألــبس. ســألته مــاذا يتوجب عليّ فعله، وفكرت في الخروج من فتحــة جدار المطبخ إلى الشارع الخلفي. حذرته مــن أن يراني عنده أو يخبره بأي شيء عني. فما كان منه إلا أن أخذني إلى الدولاب الفارغ وحشرني فيــه داخل القسم المخصص لتعليق الثياب ثــم أغلقــه. غشاني ظلام الدولاب، لكني كنت أتــنفس بشــكل طبيعي، وأسمع أصوات ما يــدور فــي الــداخل. سمعته يفتح الباب وهو يقول: حياك الله عم مطلق أهلاً، أهلاً، تفضل اجلس هنا. وسمعت صوت أبي وهو يتحدث، والأرجح أنه أجلسه في المكان الذي كنت جالسًا فيه. كان الصوت صوت أبي بالفعــل،

ويا للغرابة!، فقد سمعته يتكلم باللهجة اليمنية، ما جعل العم قائد يضحك طربًا، ويحلف أن يعمل له كوب شاي من النوع الذي يصنعه لنفسه. بعد لحظات سمعت العم قائد في المطبخ يحضّر أواني الشاي، ويشعل الدافور، في الوقت الذي كان فيه أبي يلعب بمؤشر المذياع ويحاول ضبطه على إذاعة في باله ربما لسماع أخبار المساء، لكنه كان في كل مرة يفشل في اقتفاء أثر الموجة المطلوبة لالتقاط الإذاعة. كنت، يا أمي، في الدولاب لا أستطيع تحريك قدمي لحمايتهما من البعوض الذي لا بد أنه كان نائمًا في الدولاب حين دخلته. كنت فقط أهزهما بدءًا من الكعبين باستمرار وكنت نادرًا ما أنجح في تخفيف ألم اللسعات المتكاثرة التي وصلت حتى منتصف ساقي. وكنت أعرق بغزارة، لكن أذني بقيتا متيقظتين لأية حركة ولأي صوت في الداخل. عاد العم قائد بالشاي، وسمعته يعتذر لعدم وجود ما يؤكل تحت الشاي، لكن أبي كان قد وصل به التذمر من فشله في التقاط

الإذاعة إلى أن وصف المذياع بالخردة وقـــال: أن أي مذياع لا يأتي بأخبار لندن صافية لهو خـــردة. ضحك العم قائد وأجابه: والله يا عم مطلـــق مـــا اشتريته لأسمع فيه لندن بل لأســـمع فيـــه إذاعـــة صنعاء وأيوب طارش. ثم سمعت المذياع ينتقـــل مؤشره بسرعة من إذاعة إلى أخرى حتى وصـــل إلى إذاعة صنعاء. المهم، يا أمي، قال له أبي: ما هي الأخبار؟. فأجابه العم قائد: يبقى ثلاثة أرباع. وسمعت العم قائد يخفض صوته إلـــى أقـــل مـــن صوته المعتاد، وكأنه كان لا يريدني أن أسمع شيئًا مما يريد قوله لأبي. وفي الواقـــع، كـــان صـــوته يختلط وصوت برنامج إذاعي في إذاعة صـــنعاء فيه رجال عديدون يتحدثون ثم في كل مرة يتخلل حديثهم موسيقى يمنية، فلم أستطع أن أدخل ما بين أصوات المذياع المتعددة، وصوت العم قائد، غير أنه، ولحسن الحظ، ، طلب أبي من العم قائـــد أن يطفئ المذياع لأنه يسبب له إزعاجًا وقلة راحـــة. عندها أدركت أن العم قائد لا يمكنـــه أن يخفـــض

صوته أقل مما لا يمكنني سماعه. سأله أبي: يعني متى نأتي بالشحنة الجديدة؟، تنحنح العم قائد، أما أنا فلشدة ذهولي اختل توازني واتكأت بلا قصد على الدولاب بشقي الأيمن، فاضطرب الخشب وارتفع له أطيط غير عادي، فما كان من العم قائد إلا أن صرخ: يا بس.. ثم أردف: يا لها من مزعجة هذه القطط الدواجة. عندها علق أبي على وضعية المطبخ وجداره المفتوح طوال الوقت وأبدا يأسه من أن يسمع له العم قائد ويسد الفتحة. عاد إلى السؤال مرة ثانية أبي، وعاد العم قائد إلى النحنحة. لكنه لم يستطع التأجيل إلى ما لانهاية، حينها طلب منه العم قائد أن ينتظر أسبوعين كحد أقصى لتصريف الموجود. في تلك اللحظات، سمعت صوت درج يفتح ثم صوت خشخشة ورق ثم جاءني صوت العم قائد وهو يقول: هذا ما تم جمعه خلال الأيام العشرة الماضية. فسأله أبي على الفور: كم المبلغ؟ أجاب العم قائد: ثلاثة آلاف وسبعمائة وتسعة وستون ريالاً. صرخ أبي محتقرًا

المبلغ: فقط؟!. فرد عليه العم قائد: السوق راكـــدة هذه الأيام، فنحن في آخر شوال كما تعرف. فقال له أبي مستنكرًا كلامه كما بدا من لهجته: بل أنت الكسول يا قائد، ولو بقيت على هذا الحال، لا تبيع إلا لمن يأتيك في بيتك، لربما وجـــدتك ذات يـــوم تحمل متاعك على رأسك واقفًا في طريق الجنوب تريد المكلا. ضحك العم قائد من كلامه وطلب منه أن يبقى معه لتناول خبز التنور والعسل الأســـود، لكن أبي رفض حيث قال: زينب وحدها بالبيت.

أرخت الزوجة رأسها حزينة، منكسرة الضوء. كانـــت أيضًا تود أن تعرف لماذا يخفي زوجها وجهه حينما يتعلـــق الأمر بالاتجار في بيع المفرقعات، بينما الكثير يجـــاهر فـــي بيعة وتوزيعه على الملأ؟. كان أفضل له ألا يرخص نفســـه أمام نفسه بدلاً من إظهارها عزيزة أمـــام النـــاس والواقـــع بخلاف ذلك. إذًا، لم يكن امتلاؤه بالقوة، وحـــالات الغضـــب التي تنتابه، ونظرته المتعالية لها، وكلامه القاسي في حقهـــا، وغير ذلك من المظاهر السلوكية التي تطبع شخصيته بطابع الرجل المتسلط الفظ، كل هذه الممارسات، لم تكن إلا طبـــاع

الرجل نفسه الذي يلبس ثيابه، ويحمل لحمه ودمه، ويهيج في بيتها. أما الرجل المستعار لحالاته الأخرى، ففي مكان آخر. عند زينب، أو عند الأشول، أو عند آخرين لا بد أنهم من فرط أهميتهم عنده لا يجرؤ على التفكير في صنيعه. وقد يكون العكس هو الصواب. لماذا لا تكون هي المحظوظة بإطلالة الرجل التحفة الذي يتباهى بتمثاله المزيف في بيتها.

حزينة، منكسرة الضوء، سألت ابنها الذي كان قد فتح نافذة إحدى الغرف ليرى أي أصحابه يلعب في شارع البيت بالقرب منه، ثم عاد إلى مكانه:

- حافل، ولدي، هل هو أبوك بعينه؟ هل أنت متأكد من أنه أبوك؟

أكد لها حافل أنه رآه من فتحة الدولاب وهو يضع المال في جيبه ويعطي الأشول، مبلغًا من المال لا يدري كم مقداره؟ ثم بعد ذلك رآه من ثقب الباب بعد أن خرج من الدولاب، وهو يركب سيارته. وأكمل حديثه وهو يدلك يدها اليمنى بيديه:

- هو بشحمه ولحمه وسن الذهب اللامع في فمه.

ثم أضاف موضحًا:

- لما سألت العم قائد منذ متى وهو يأتي إليه لهذا العمل، أجاب منذ ثلاث سنوات. أي في الوقت الذي عانيت فيه أنت من مشاكل الظهر وتزوج هو النصرانية. لكن، لماذا لجأ إلى هذه المهنة؟ هل بسبب حاجة ماسة إلى المال، أم أنه، ولأسباب غير معروفة، أحد الأشخاص الثلاثة الذين يعمل معهم العم قائد؟ لا أفهم هذا الوضع.

أما هي فلا تريد مزيدًا من التوضيح لتفهم لماذا أشعل ابنها في بيتها المفرقعة؟. كان يريد أن يقول له أنها إحدى بضائعه، وأنه على اطلاع بما يحدث وليس مجرد شخص يشتري الألعاب النارية ليحرقها من أجل اللهو كما يفعل بقية الأولاد. لطالما وثقت في عقل ابنها وذكائه. أحيانًا، يقوم بأفعال لا يقوم بها من هم في مثل سنه. وتساءلت ما إذا كان فهم أبوه المغزى؟ أعادها إليه سؤاله المفاجئ:

- لكن قولي لي، يا أمي، هل هو جاد في كلامه الذي ألمح فيه إلى نيته بالطلاق؟

لم تجبه على سؤاله. كانت مستغرقة في ملاحظة ترى أنها جديرة بالتأمل. كانت تقول في سرها، ها هو حافل أيضًا

لا يريد أن يتوقف عن الكلام وكأنه بصعوبة وجد وقتًا مناسبًا ليتكلم.

(٥)

تتساقط عيدان النهار صفراء في إثر شمس كبيرة تغرب. وإذ تغيب تمامًا، تطفو على الأرض ساعات المساء بإيقاع رتيب الشفق أولاً، مثل سهل من النمل ينهار في البحر. عندئذٍ يستوي ميلان الأرض في أجنحة طيور تتحاشى الارتطام بأعمدة إنارة لم تصح بعد. مسرعة تؤوب إلى مجاثمها على الأشجار وفي ما سمحت به البيوت من تجاويف وذرى. ثم الغسق تاليًا حيث لا يرى أين يضع قدميه. جاء الليل، رددت ذلك مجتمعة أعمدة المصابيح إذ تضيء. آنذاك، اطمأنت المدينة إلى الوضع الجيد لمحطة الكهرباء الوحيدة التي تغذيها بالضوء. وانفتح صدر مدير المحطة بهواء الليل الطازج، وصدحت على جبينه عنادل السعادة. غير أن دلو الليل الضخمة اندلقت بغزارة على بعض الأحياء الشعبية القديمة، ما جعل بعض الأزقة تمتلئ بصرير الأبواب وهي تتلمس طريقها في ضوء الفوانيس. وفي بعض الأنحاء لف المكان صرار الليل، ثم رفع نشيد رجليه الخلفيتين في تحية مسائية للحجارة والشقوق السوداء

التي ترتادها أنثاه. وغمرها الترف لاحسة السكر في مخـــزن تاجر يبيع بالجملة بضاعته الحلوة في النهار فقط.

بيد أنه بعد مضي وقت، ما لبثـــت أن اســتوت فــوق المدينة رتيلاء ضخمة حالكة السواد، ثم راحت تضغط تحت بطنها الشوارع والأزقة لإشباع رغبتها في إنهــاك الضـــوء ومن ثم لدغه في مقتل ليصيب المدينة بكاملها الظــلام. لــم تحتمل مولدات الضوء، في ساعة من الساعات، نقر العتمـــة الحاد لأسلاكها العارية المنشــورة علـــى أبـــراج حديديـــة، فانهارت بغتة. وخطفت عين الأفغاني عند ذاك شعلة الفــرن الصافية في مخبزه الملتوي، فرفع يده عن مقــبض ملقـــاط الخبز والتفت ماذا بصره إلى الخارج متسائلاً: ماذا حدث؟!.. ولم يجد شمعة في محله بائع اللمبـــات وأقـــلام الفلورســـنت الضوئية، فاضطر إلى إشعال ولاعة سجائره علـــى دفعـــات ليرى الطريق.

عم اللون الأسود المكان. لون الفحم المنسل من خشب السمر في مطاعم المندي، والألواح المحروقة عرضًـــا فـــي الطرقات ومواقع العبث اليومي للمراهقين. كأن طبولاً، فـــي ساعة زحف ظافر، تدقها صفائح الظــلام الســميكة، بينمـــا

انحسرت في البيوت الحركة إلى مرمى شمعة هنا وهناك. وارتفع ولع النظر إلى الأشياء في العيون فاتسعت الحدقات. أما الشوارع التي كانت تجلوها بالضوء أعمدة الإنارة، فقد امتلأت بهواء متوجس تمرغ في رقاب العابرين المتلفتة حتى ثخن. في هذه الأثناء قيل أن ثمة من رأى على عجل شبحًا في الظلام يقف أمام جدار ويحرك يده كمن يرسم شيئًا ما. لكن المدينة المعتمة لم تنصت لشيء مثل إنصاتها، في تلك اللحظات، لأصوات سيارات فرق الصيانة وهي تحرك رافعاتها في كل الاتجاهات بحثًا عن ضوء لسمعة الشركة. هل وجدت شيئًا؟. تلتقي على مثل هذا السؤال أفواه الفنيين ومهندسي المواقع، وهم يفحصون خطوط الضغط في أعالي الأبراج، وداخل محطة الكهرباء، بينما اكتفى من ظن أنه لم تخدعه عينه لحظة أن رأى الشبح أمام الجدار، بأن يسأل: ترى، هل كان يرسم في الظلام ما يمكن رؤيته؟

وفي الصباح، عندما تفتح صنابير الماء بشكل عادي، سيتجشأ بكثير من الحبور بائع البليلة المتجول بعد إذ غنم ساعات نوم مريحة. ثم إنه عند العاشرة صباحًا، يلزمه أن يخرج لقبض ما تبقى من حساب له عند بعض فني محطة

الكهرباء الذين كانوا أمضوا معظم ليلتهم في إصلاح أحد المحولات الرئيسة. في الطريق سيلتقي به مسلط، وبدافع الفضول سيسأله إذا كان حقًا رأى الشخص الذي يرسم على الجدران؟

وقبل ذلك بساعات، كانت لما أحست بانقطاع التيار عن بيتها، دفعت سجود نفسها على كرسيها إلى الصالة وقد مسها قلق وانزعاج. ظنت أن التيار إنما انقطع بسبب عدم تسديد الفاتورة ولكن تبين لها أن الحي بكامله تغمره نفس الظلمة. خشيت أن تسقط بين سريرها والكرسي لأن أحد عكازيها انزلق سنتمترات من مكانه، وحين توسطت من الصالة لم تجد حافلاً على الفراش. خمنت أنه ذهب إلى الحمام، غير أنها، لما تأخر كثيرًا، رجحت أن يكون في غرفته بسبب الحر في الصالة. لكنها بعد منتصف الليل فوجئت به يدخل البيت قادمًا من الخارج:

- حافل، هل أنت بخير؟

قالت ذلك السؤال، عند الساعة الواحدة صباحًا، وكانت قد ظنته أرتكب خطأ ما فصعد إلى السطح بعد إذ تيقنت أنه ليس في غرفته لأن الغرفة لما فتحتها استقبلتها بسرير فارغ.

لم تذكر له أنها فكرت في أمـــر الســطح بجديـــة كبيـــرة. فالخادمة، على أيٍ حال، لا تفتح بـــاب غرفتهـــا لأي كـــان، فكيف تفتحه لمن جاء إلى السطح بالخطأ، أو بسبب خلل في تحديد الاتجاهات؟!. لم تقل له أنها فكرت ، أنها فقط، فكرت في احتمال أن يكون قد صعد إلى السطح ليرى الحارة فـــي الليل الحالك. بيد أنها ما كانت لتغفل احتمال خروجـــه مـــن البيت، حينما وضعت في الحسبان، مرات سابقة خرج فيهـــا من المنزل بعدما أوى إلى فراشه. رأته يضطجع على جنبـــه ويدخل في نوم لا تعلم كيف سقط عليه دفعة واحدة. المهم أنه لم يأت من السطح، حدثت نفسها بتلك العبارة ثم تركته ينام.

لمسلط، لم يؤكد بايع البليلة من كان ذلك الشخص على وجه التحديد. قال أنه رآه فحسب واقفًا أمام الجدار تتحـــرك يده على الطوب إما برسم أو بكتابة، والأرجـــح أنـــه كـــان يرسم، ومن جهتـــه، افتـــرض مســـلط أن انقطـــاع التيـــار الكهربائي، وشعور بائع البليلة بالخوف من الظـــلام الـــذي باغته سيما وأنه كان وحده، أضافا إلى ذلك الشـــخص بعـــدًا شبحيًا يبعث على الوجل في نظر البائع، ما جعله يسرع فـــي الخروج من المنطقة في الحال. وهذا ما اضطر إلى شـــرحه

لاحقًا البائع بالفعل، مضيفًا إليه في النهاية الحكمة التي تقول "يا داخل بين البصلة وقشرتها، مصيرك تطلع منها عريان" بعد لحظات صمت، قال أنه خيل إليه وكأن طـــوب الجـــدار كان وقتها يعلو ويهبط مع حركة يده. هذا كل ما يستطيع أن يقوله الآن. وخرج من دائرة اللقاء بخطـــى حثيثـــة وعلـــى مسافة أمتار من مسلط قال له: في أمان الله.

بعد أيام، تبين له أن ما دار بينه وبـــين مســـلط ، دار بروايات متعددة بين كثيرين، غير أن السند فيها كان يرجـــع بشكل عام إلى مسلط عن بائع البليلة نفسه. انتشر الخبر بين مجموعة مسلط أولاً، ثم ســـرعان مـــا وصـــل إلـــى بقيـــة مجموعات المراهقين في الحارة، ثم في سائر المدينـــة بعـــد ذلك. واشتهر بائع البليلة بكونه الشخص الذي رأى الرســـام على الجدران. وأنه رأى الطوب يعلو ويهبط مع حركة يده. بعد ذلك رآه يعدو كالذئب متجهًا إلى حوش المســـاكين فـــي طرف المدينة وفي يده شعلة ملونة. تقاطر عليه وعلى قـــدر البليلة الذي تحمله عربته، الباحثون عن تفاصيل أكثر دقـــة. صار قديمًا ومملاً، كل ما تداوله الناس في الفترة السابقة عن الرسام. الأخبار الجديدة، والتفاصيل التي لا يعرفهـــا أحـــد،

موجودة عند بائع البليلة سلامة الحـــواز. ســـلامة الحـــواز لا غير. أية نجمة حظ من السماء طاحـــت علـــى قـــدره؟، مندهشاً تساءل. لم يصدق ما رآه يحدث بين يديه في بـــادئ الأمر، بيد أنه أمام الزحام على قدر البليلة، وتكاثر الطلـــب على معرفة المزيد عن القصة، وبعضهم وصفها بالمغـــامرة، لم يجد بدًا من استنفار خياله وتركيب الصورة بأجزاء جديدة لم يسبق أن أعلنها لأحد. بل إنه حضر في بيته نوعـًـــا مـــن البليلة بإضافات جديدة من التوابل أطلق عليها "بليلة الرسام". وكتب على مقدمة العربة "يسعدنا أن نفوز برضاكم. تمتعـــوا بتذوق بليلة الرسام في كل الأيـــام". وصـــرخ ذات غـــروب دافئ، يا لها من أيام سعيدة يا سلامة!. حتى أن فريق مراقبة الأسواق عامله باحترام وغض الطرف عنه وهو الذي كـــان يمنعه من البيع أمام واجهات السوق الرئيســـة. وجـــاء إليـــه مسلط وأبدى له سعادته من رؤيته بحال أفضل ملمحـًـــا إلـــى دوره في ازدهار عمله ونجاحه. لم ينكر سلامة صنيعه، بـــل اعترف له بالخدمة الكبيرة التي قدمها لها. عندها سأله مسلط مباشرة:

- تلك الليلة ، هل رأيت الرسام حقًا، أم كان ذلك حيلة منك لتحريك بضاعتك الكاسدة في هذه البلدة؟.

ابتسم سلامة محتفظًا بهدوء الرجال الناجحين في أعمالهم، وأجابه:

- وما هو الفرق ما دام أن كلا الأمرين يعود عليّ بالفائدة نفسها؟!

وقدم لمسلط، في الحال، طبقًا من بليلة الرسام اعترافًا منه بجميل فعله، رغم شكله الخفي في نواياه وهدفه من إشاعة الرواية.

على جدار بيت العمدة، وبالقرب من مركز العمودية، وجدوا مرسوم صورة إنسان يبكي بشدة وكأنه للتو دخل في خلاطة أخبار سيئة أصابته بانهيار مريع. دموعه الغزيرة ذات الشعب الأربع، تنهمر من عينيه وتهدد بابتلاعه. أشار سلامة إلى أنه كان واقفًا بالضبط خلفه وعلى مسافة أمتار قليلة، عندما رآه يقف فجأة ويشرع في الرسم. بسبب الظلام، وبسبب عدم وقوفه في مكان مناسب، قال سلامة أنه لا يستطيع أن يصف لهم ملامحه. لكنه كان ذا طول واضح،

وتخلو قامته من مظهر الرجل البدين. يضـــع علـــى رأســـه شماغًا يلف طرفيه حول رقبته أو حول وجهه. ثم تذكر أنـــه لا بد من إضافة أجزاء جديدة للقصة ما دام أن الجميع أتـــى ليصدق المزيد، فتحدث عندئذٍ عن بقعة ضوء صغيرة كانـــت تتحرك أينما تحركت يده على الجدار، ثم بعـــد أن اكتملـــت الصورة وتوقفت يده عن الحركة اختفـــت. وقـــال أن المـــدة الزمنية التي قضاها في الرسم استغرقت دقائق قليلة ثم اختفى في الوقت الذي غادر فيه سلامة المكان بسرعة.

على الفور كلف العمدة عماله بطمس الصورة وإعادة مظهر جداره إلى شكله السابق. وتساءل في حنق:

- لماذا جداري أنا بالذات؟!

ولو افترض أحدهم أن العمدة في تلك اللحظـــة، جـــال بفكره بحثًا في ذاكرته عن أعداء يمكن أن يقوموا بهذا العمل، لكان افتراضه في محله. والواقع أن العمدة من النوع الـــذي يستسلم بسهولة للوساوس والتخيلات الغريبة كلما وجد نفسه عرضة لأحداث من صنع الغير. سلط العمال على الصـــورة ماكينة رش الألوان المملوءة بخلطة اللون الأبيض الخشـــنة وغطوها بالخلطة مرة بعد مرة. ومر أسبوع وكل شيء على

ما يرام. ثم مر أسبوع ثانٍ وثالث دون أن يحـــدث شـــيء، وتوزع العمال بين يدي العمدة يمينًا ويسارًا لقضاء حاجاتـــه وخدمة مصالحه. وبعد انقضاء شهر، فتـــرت قـــوة اللـــون الأبيض فصار تحت خف الشمس باهتًـــا ومنكمشًـــا كورقـــة خس. ثم دفعته تصدعات رفيعة تفشت فيه إلى أن يماثل شيئًا فشيئًا حوض مياه جاف تغطيه أقراص الطين. تحات صـــنيع العمال إلى الأرض، وطارت مع الريح جلدة اللون الســـميكة فظهرت خلال نصف الشـــهر الثـــاني الخطـــوط الســـوداء للصورة. عاد الإنسان الباكي إلى الظهور على جـــدار بيـــت العمدة بدموعه الغزار وحزنه ووحدته الصلبة. عندئذٍ لم يعد ثمة شك عند مسلط وجمع من الناس في أن الصـــورة مـــن عمل الرسام. فالصور الأخرى التي رسمها في أماكن عديدة، كانت أيضًا تتمرد على جبروت الدهانات التي مورست عليها لطمسها وإخفاء بشاعتها عن العيـــون، عيـــون زوار البلـــدة بالذات.

كثيرون من ذوي المراهقة الغضة المشوبة بالمبالغـــة في حب الظهور، والحسد في الغالـــب، رســـموا باليســـار، وباليمين، المئات من صور البشر على الجدران، مـــرجحين

كفة الصدفة أو الحظ في الخروج إلى الناس برقـــاب طـــوال وأيدي غير مكررة، فيما لو نجحوا في إيقاف الرســـام علـــى قرنيه خاسرًا أهم لعبه على الإطـــلاق لكـــنهم لمّـــا أحســـوا بعجزهم المفرط إزاء ما ظنوه سحرًا يدفقه الرسام في صوره لجعلها تستعصي على الطمس والإزالة، عرفـــوا أنهـــم لـــم يزيدوا على أن جعلوا المدينة أكثر ازدحامًا بصـــور النـــاس المعلقين على الجدران. أو "ناس الحيطان" كما علـــق أحـــد المحللين الاجتماعيين. وبدت لكثيرين منهم أنها أقـــل أهميـــة مما ظنوا. بل أن بعضهم قرر التوقف عن الرســـم لتخفيـــف العبء على عمال البلدية. رسموا كل الناس، وبكافة الأطوال والأحوال والهيئات. رسموهم على معظم الحيطـــان. علـــى حيطان المسئولين الحكوميين، وحيطان التجار، وجدران فلل القضاة الضخمة ذات الهناقر العالية من كل الجهات، رسموا بشرًا كثيرين في المدارس. على أبواب الحمامـــات، وفـــي داخل الفصول، وتحت العطفات الســـفلية للـــدرج. بـــالفحم، وبالطباشير، وبأقلام الرصاص، وأقلام الحبر الجاف، وأحيانًا بأزاميل ملفقة، ثم لدى البعض، بعبوات الأصباغ اليدوية التي يطلقون عليها "البخاخات" صارت موضة. صـــارت ميـــدانًا

ذهنيًا لدى الشباب الجائسين مجموعات بعد مجموعات في الشوارع وملاعب كرة القدم والمقاهي كل مساء. وكلما اجتمع رهط من مجموعة معينة في مكان، أتى على ذكر أمور مثل أفضل رسمة، وأبرزها للعيان، وأكبر الرسوم حجمًا، وأكثر الرسوم تعقيدًا أو طرافةً. أو تحدث الرهط في أشياء مثل الرسم بالفحم، والرسم بالألوان الزيتية، والألوان الخشبية الجافة، والرسم بـ "البخاخات"، وأيها أفضل؟. يحدث ذلك، إلى جوار ملصقات الإعلانات التجارية. إلى جوار آراء جماهير الرياضة في أنديتها، وأسماء لاعبيها المفضلين. إلى جوار عبارات الحب، وأشعار الغزل، والتأسف على فوات الفرص، وإظهار آلام الهجر والفراق.

غير أن ذلك كله، بدا في نظر البلدية، وباءً يلتهم جمال البلدة العمراني، ويدمر اللمسات الفنية التي على جدرانها، واعتبره المحافظ سلوكًا مخجلاً لا يمكن أن يبدر ممن لديه إحساس بالمسئولية، بل إنه ينم، كما قال في اجتماع عام، عن تدنٍ مؤسف في الوعي بالمواطنة الحقيقية. أما علماء الاجتماع، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى جاءتهم تدب على قدميها ظاهرة الشخبطة على الجدران بإيعاز من الصحافة المحلية،

وعند ذاك، عدها من كان وقتها مهتمًا بالأمر، ظاهرة خطيرة تدل على نشوء مفاهيم وسلوكيات جديدة، كـان للتحـولات الاقتصادية وارتفاع مستوى الرفاهية فـي مرحلـة الطفـرة الغابرة، دور في صناعتها حيث تغيرت المفاهيم تجاه أشـياء كثيرة لها علاقة بواقع المجتمع ونمط عيشه ومستوى تفاعله وتأثره بالعالم الخارجي، ما أدى إلى تغير كبير في سلوكياته يصل أحيانًا إلى حد الغرابة. أخصائي نفساني متقاعد، أرجع أسباب المشكلة، وهو يحتسي قهوته في أحد مكاتب العقـار، إلى أن المجتمع رغم تطوره الملحوظ في العمران ونوعًا ما الاقتصاد، بقيت شرائح عديدة منه تعيش في حقـول نفسـية مفتوحة على الآثار السلبية التي تصاحب، فـي العـادة أيـة مشاريع تنموية تحدث بوتائر سريعة في مجتمع بـدوي فـي معظمه، وأفضى بها ذلك إلى أن انطبعـت بطـابع انفعـالي سلبي قامع انعكس على تصرفاتها وطرائق تفكيرها.

وشنت الصحافة هجومًا عنيفًا على المتسببين في تشويه البلدة وطالبت بمحاسبة المتورطين في السكوت على الفاعلين دون أن تسمي أحدًا بعينه. أحد الصحف المحلية، تقدم رئيس تحريرها بمقال طويل بالصفحة الرئيسة، وهو الأمـر الـذي

يفعله للمرة الأولى، إذا كان يكتفي في كل عدد بمقال قصير يتحدث فيه عن الحب وفنون العلاقات مع الآخر مبتعدًا قدر الإمكان عن التطرق في مقاله، إلى الأحداث السياسية الكبرى وهموم الشارع العربي. تقدم رئيس تلك الصحيفة إلى الواجهة بمقال يطلب فيه الإسراع بتكوين لجنة من المختصين لدراسة الظاهرة بتعمق واستخلاص النتائج التي وضعت نظرة المجتمع للفن والجمال في هذا المأزق. وفي أحد الأيام، حدثت بين صحيفتين محليتين مشادة صحفية استمرت أسابيع عديدة، بسبب لقطة ظهرت في طبعة مسائية لإحدى تينك الصحيفتين بعد تغطية صحفية روتينية. كانت اللقطة تتحدث عن مشهد عريض في جدار مملوء بصور أصناف كثيرة من البشر، اتخذ بعضها أشكال أجساد مطروحة على الأرض، أما نائمة أو ميتة بالفعل. وبعض الصور تلفعت ملامح وجوهها بنظرات حائرة كتلك النظرات التي تلتقطها الصحف في العادة من عيون مجموعة من الشباب الجامعي، كلما عملت تحقيقًا ميدانيًّا عن خريجي الجامعات والبطالة. وفي المشهد أيضًا، كان ثمة صور بأشكال راقصة وابتسامات لاصقة مأخوذة من صور نجوم

سينما عرب وأمريكيين. غير أن واحدة من تلك الصور التي ضمتها لقطة الكاميرا في تلك الصحيفة، كانت عبارة عن وجه دائري كبير غطيت مساحته الداخلية بصفحة اقتصادية لعدد سابق من الصحيفة صاحبة اللقطة، وفي مكان العينين رُكبت صورتان لذئبين في حالتي عواء. كانت ملاحظة الصحيفة المنافسة، وكانت مجرد مقالة صغيرة في صفحتها الأخيرة، أن الصحيفة تلك تروج لنفسها عبر صور دعائية لها، على حساب الخبر والحقيقة.

وبغض النظر عما حدث من لغط ومشاحنات وردود أفعال متباينة حول الظاهرة، يجزم بائع البليلة أن الكل متفق على أن آلاف الصور تلك، لم تستطع أن تمس حضور الرسوم القليلة التي وزعها الرسام على المدينة ولا أن تلغي تعلق المارة بها. وليؤكد صحة كلامه، أشار إلى ما فعله العمدة حينما أعاد إلى الرسمة رونقها بعد حادث الطمس الفاشلة ووضع حولها إطارًا من الخشب ليراها المارة بالقرب من مركزه. وعلى الأرجح، لم يصل إلى البائع أن العمدة كان قد أعلن لبعض الصحفيين بعد أيام من الحادثة، أنه إنما فعل ذلك لأن الرسمة بسيطة ومعبرة وتصلح أن تكون موقفًا

منه ضد ما أطلق عليه " العبث المجنون على الجدران" الذي أخل بجمال البلدة وشوه صورتها أمام الغريب. فلو كان سلامة الحواز ممن يقرأ مثل ذلك التصريح، لعلق الخبر على واجهة عربته تعبيرًا عن فرحه بكلام العمدة وليستدل على أن رأيه هو أيضًا كان صحيحًا في الرسام. كان سيعلق الخبر بالقرب من القدر، ليظهر التصريح المنشور واضحًا للزبائن، وهو يغرف لهم المزيد من البليلة.

الأمر الذي لا شك فيه، بالنسبة إلى قائد الأشول، هو أن العمدة، ليس إعجابًا ولا تعلقًا بالرسمة، قرر الاهتمام بها بل كان السبب هو الخوف منها. كان يخشى أن تنتقل آثار الرسمة الغريبة إلى بيته. ففي الداخل، قواعد فيلاً ضخمة بنيت منذ وقت طويل على مقبرة كانت في طور النشوء، عندما سويت معالمها بالأرض وبيعت ضمن مخطط كبير إلى الناس. وفي الداخل، امرأة تشكو من ضاغط نفسي يهاجمها عندما تخلد إلى الراحة. شعور بالضيق في القيلولات، وكوابيس شيطانية ونيران تشتعل تحت أهداب عينيها ليلاً تجعلها بحالة نفسية سيئة. وهو، بعد أن رأى بعينه أن الرسمة لم تفلح في طمسها ماكينة الرش، اختار الحل

الأسهل. أن يتركها على جداره بطريقة توحي بتعلقه بــالفن، وحبه للوحات الفنية حتى ولو كانت مجــرد عيــون تبكــي بإسراف. أرادها أن تبقى لائذة بالجدار من الخارج إلــى أن تواتيه الفرصة لهدم الجدار بكامله بهــدف توسـيع مكتــب الاستقبال وتطويره. أما بالنسبة إلى حافل، فلديــه معلومــة قديمة، غير أنها ليست ذات أهمية كبيرة إذ لا وجود لأدلــة على صدقها، وهي أن العمدة بنى بيته على أملاك أيتام عندما كان "شُرطيًّا" يبيع ويشتري في السيارات اليابانية قبل زواجه بسنين عديدة. لكن المهم هو أنه صدق أخيــرًا، ألا علاقــة لحافل بالرسمة. هذا ما ردده حافل أمامه ذات عشية مؤكــدًا أن وجود اسمه تحتها ليس جزءًا من العمل بل أنه أضــيف إليه لاحقًا. والدليل على ذلك، هو أن اسمه زال تمامًا بعد أن أضيف إليه لاحقًا. والدليل على ذلك، هو أن اسمه زال تمامًا بعد أن استعمل العمال الرشة البيضاء لطمس الرسمة. وزال أيضًا في الرسومات الأخرى بعد انبعاثها من تحت الدهانات.

أما الجهات الأمنية، فبعــد أن كلفــت بــالتحقيق فــي الموضوع، فإن أول عمل قامت به هو القبض علــى حافــل لكونه الشخص الوحيد الذي كان اسمه موجودًا تحت عدد من

الصور المرسومة بالفحم بحسب تقرير أحد منسوبيها من قسم التحريات. في ذلك التقرير، أطلق على تلك الصور اسم "مجموعة حافل" وذكر مواقعها والتواريخ التي رسمت فيها، والمفاهيم الفكرية التي وشت بها. كما ذكر التقرير أن الأوقات التي يختارها للرسم، تحدث في مدد زمنية لا تقل عن نصف السنة في معظم الأحيان بين كل وقت وآخر. ولاحظ، أن ذلك يحدث في الليل غالبًا، وفي أوقات غير عادية، إما في وقت انقطاع عام للتيار الكهربائي أو خلال جو مضطرب كوقت المطر والعجاج. وكتب التقرير، أنه يرسم بمادة سوداء أشبه بالفحم لا تزول من الجدران وغير قابلة للطمس. وهكذا وجد حافل نفسه مرة أخرى في غرفة توقيف جديدة بعد مرور أقل من سنة على دخوله غرفة التوقيف الأولى. دخل الغرفة مساءً أيضًا، وحشرت له كمية كافية من العتمة، والصمت في بادئ الأمر. كانت غرفته الأولى التي حجز فيها العام الماضي لا تبعد كثيرًا عن غرفته الجديدة، وكان فيها مجموعة من الموقوفين أيضًا. ومرت ساعة على انصرافه نحو وحدته الخاصة في غرفة مقفلة، يفكر فيها بمخلص جديد. لكن الباب بعد ذلك فتح، واقتيد إلى

غرفة تحت الدور الأرضـــي مجهـزة بوســائل متواضـــعة للجلوس والإضاءة.

بعد تحقيق مطول معه تطرقــوا فيــه إلــى عائلتــه ومدرسته وأصحابه وسبب تعلقه الشديد بالألعــاب الناريــة، أخذوه إلى الرسمة المعلقة على جدار فيلاّ ضــابط الشــرطة القريبة.. وجدوا أن طوله الذي لم يكن يتعدى مائــة وســتين سنتيمترًا، زائدًا طول يده، يقلان عن ارتفــاع الــرأس فــي الشكل المرسوم بحوالي عشرين سنتيمترًا. رغم ذلك، وضعوا في يده قلم فلوما ستر، وقالوا له ارسم نفس الرسمة، ووضع أحدهم يده على المكان الذي حددوه للرسم، وكان عن يمــين الرسمة الموجودة على الجدار. احتار من أين يبدأ ؟. هل يبدأ بالرأس، أم يبدأ بالقدمين؟!. لم يحدث أن قــال لــه إنســان ارسمني على ورقة أو على جدار من قبل. بل إنه لم يسبق له أن رسم نفسه على كشكول الرسم الخاص بــه. مــا زالــت عفونة أقلام الرسم في أصابعه تتعتق، منذ أن قال له معلــم الحصة الفنية ارسم منظرًا طبيعيًا حدد فيــه لــون الشــجرة وشكل الشمس والجبل والحظيرة والكوخ والفلاح. لم يستطع

إكمال اللوحة حينذاك وطلب من المعلم أن يعفيه من رسم العنصر الأخير ويقبل العمل كما هو.

ولاحظ حافل أن الشارع احتقن بنصف حلقة فضوليين يرصدون المشهد من بعيد. أصوات عمال، على ثرثرة باعة متجولين، على تعليقات مجموعة فتيان يسمع بحة أصواتها تتهكم عليه. إنا لله، حرك لسانه الناشف بدون أن يحرك رقبته. دهمه صوت أقربهم إليه، بالبدء في الرسم. قال له آخر:

- ما بك؟ هل تنتظر منا أن نصفق لك أولاً ؟، هيا أرنا كيف رسمت هذه "الشخابيط"؟

تذكر أن قرص الشمس دائري الشكل مثل الرأس تقريبًا لا بأس. بموهبته في رسم الشمس، والجبل، والشجرة، والبحر فالشمس دائرة، والجبل مثلث، والشجرة دائرة تستند على خط عمودي أو مائل. أما البحر فمجموعة من الخطوط الزرقاء المتوازية المتموجة مرة إلى أعلى ومرة إلى أسفل. أو مثل أيدي الطلاب وهم يؤدون في فناء المدرسة التمارين الصباحية. تلك الأشكال الطبيعية البسيطة استطاع أن يدرب يده على التعايش مع حركاتها الصاعدة والنازلة والملتوية

حول نفسها. لكن الإنسان، كيف يرسمه؟ أو بالأحرى، هذه الرسمة التي طالما حدق فيها وافتتن بها رغم الألم الذي سببته له في السابق، ورغم الحصار الذي تضربه عليه الآن؟. على أي حال، يمكنه الآن بضمير مرتاح أن يسامح من فعلها وكتب اسمه تحت هذه الرسوم بالذات. ولحسن الحظ يبدو أن الرجل الذي يقف بالقرب منه اقتنع بمنطقه. لا يعقل أن تعود الرسمة إلى الظهور ولا يعود معها الاسم الذي عليه اعتمدوا في قرار القبض عليه.

بيد مشدودة إلى أعلى ما تستطيع، ومرتعشة في نفس الوقت بدأ بالرأس. مثل الشمس في السماء، رسمه دائرة كبيرة ثم أدخل فيها العينين بنفس الحركة. دائرتان صغيرتان، كل واحدة إلى جوار الأخرى فيخط مستقيم بالنصف العلوي للدائرة الكبيرة. هكذا سيرسم الوجه على أي جدار آخر يطلبون منه أن يرسم وجهًا عليه. وإن أمروه أن يرسمه على الأرض، فسيرسمه بنفس الطريقة ليعلموا أنه الشكل الوحيد الذي يقدر عليه. الوجه، مجموعة من الدوائر الصغيرة في دائرة واحدة كبيرة على الدوام. أمسك الذي يقف خلفه، بيده ثم أنزلها إلى أسفل. كان يضحك الرجل. كان من خلال

صوته، يحس حافل أنه ينظر إلى رهطه الـــذي جـــاء معــه ويضحك بصوت نخرته السجائر. ومما لا شك فيه أنه كـــان غاضبًا للغاية أو ربما وصل إلى حالة من الغلو في التفكيــر بتصرف عنيف تجاهه:

- هل تستهتر بنا يا كلب؟

سأله الرجل.

- أبدًا، لم يخطر ذلك ببالي والله.

أجابه حافل بتصميم على رد التهمة التي يجــزم أنهـــا خطيرة.

- إذًا، ارسم من جديد، هنـــا، ارســـم هنـــا، وإيـــاك والتلاعب بنا.

قال له الرجل، ووضع يده مرة أخـــرى فـــي مكـــان مجاور. اقسم له حافل أنه لا يعرف كيف يرسم شكل الإنسان بالطريقة التي ينتظرونها منه. لكن لو أنهم أمهلـــوه بعـــض الوقت لربما أستطاع أن يحاكي الرسمة بشـــكل جيـــد. فـــي غرفة التحقيق، أكد لهم مرارًا، أنه لـــيس الشـــخص الـــذي يريدون. وفي كل مرة يقول لهم ذلك الكلام، كـــانوا يـــردون عليه في حزم بأن يأتيهم بذلك الشخص إن كان صادقًا. وفي

الميدان، أمام الرسمة، اكتشف أن الذي رسمها شخص طويل بالفعل. بل إنه يكاد يكون أطول شخص في البلدة. من الطبيعي أن يكون كذلك، وإلا فهل من المعقول أن يحضر معه رافعة ليزداد ارتفاع الرسمة على الجدار؟. سيستفيد ماذا؟! يقول سلامة بائع البليلة أن الرسام جاء بمفرده لكنه لم يذكر ما إذا كان أحضر معه سلمًا أو كرسيًا طويل الأرجل لتضليل الناس بطوله الوهمي أم أنه اعتمادًا على رجليه الطويلتين بالفعل قام بالعمل؟. ويذكر سلامة أيضًا أنه لم يلبث طويلاً في مكانه، على حد ما يتذكره حاقل من كلام البائع.

وهو هنا، لا شك في أنه يشعر، بين هؤلاء الرجال، بالخوف والاضطراب. وأسوأ ما في الأمر، هو أنهم كلفوه بما ظل زمنًا طويلاً، غير قادر على فعله حتى في المدرسة. أن يرسم بشرًا. لكنه رغم خوفه، ورغم قلقه على مصيره، لم تمنعه لحظته الحرجة من أن يتمنى لو أنه يحقق بالفعل رغبتهم في إحضار من قام بهذا العمل. ليس ليخلوا سبيله رغم أهمية ذلك عنده، وإنما ليراه بعينيه. ليسأله عن معنى الضحكة القبيحة الواسعة في هذا الوجه الذي يرتفع فوق يده بمسافة. تلك الضحكة التي كأنها الآن انفرجت أكثر عن

سخرية كبيرة وشماتة أكبر لأنه عاجز عن محاكاتها في رسمة من صنع يده. ليسأله عن سر التموجات الطيفية الساحرة للجسم في كل رسم يتركها على جدار في البلدة. لطالما تمنى أن يلتقي به لا ليعرف من هو، بل ليتعلم منه أشياء كثيرة يريد أن يعرفها بسرعة، إنه يطلبه أكثر منهم، وفي كل مكان، ومنذ وقت طويل. بيد أنه، كما اعترف ذات ليلة لأمه، فشل فشلاً ذريعًا في تعقب أثره رغم أنه يكاد لا يدع وقتًا يمر، إلا ويخرج فيه للبحث عنه والترصد له. لم تثنه تهكمات أصحابه عن المضي في انتظار "الشبح" كما كان مسلط يردد، كلما تحدثا في هذا الموضوع. قال له الرجل الذي يكاد يلتصق بظهره:

- حتى الآن، لا يوجد ما يؤكد عزمك على أن ترسم مثل هذه الرسمة. هل أنت متأكد من أنك تستعمل يدك اليمنى في الرسم؟

أجابه حافل مستغلاً سؤاله لإراحة يده اليمنى من وضعها معلقة فوق رأسه منذ أن بدأ الرسمة:

- أجل، أنا لا أستعمل في الكتابة والرسم إلا اليد اليمنى. علق رجل آخر يقف على مسافة منه:

- لا أصدق أنك لا تعرف كيف ترسم. تدرس بالثانوية ولكنك لا تعرف كيف ترسم شكل إنسان. كيف نستوعب هذا الكلام؟
- قلت أني لا أعرف كيف أرسم مثل هذه الرسمة، لكني أرسم أشياء أخرى.
- مثل ماذا؟
- مناظر طبيعية. واحة نخيل، أشجار سدر وأثل، بحر، شمس، قمر. في العادة لا أرسم إلا هذه الأشياء.
- ألم يكن يوجد في المناظر الطبيعية التي رسمتها في السابق، آدميون. فلاحون مثلاً، رعاة أغنام؟
- ذلك لم يحدث معي أبدًا.
- لماذا لم تحاول أن تتعلم؟. هل هناك سبب معين؟
- لا يوجد سبب. فقط وجدت نفسي أني بليد في هذا الشيء.
- منذ متى تقريبًا وجدت نفسك كذلك؟
- منذ الصف الخامس الابتدائي.
- وقبل ذلك؟

- قبل ذلك كنت أعبث فحسب، كما أتذكر.
- وهل تريد منا أن نصدقك؟

عندما تسأله أمه هذا السؤال، كان لا يجيب بــــ نعـــم و لا بـــ لا، بل كان يقول الأمر يعود إليك. أنا لا أطلب ممن يلقي مثل هذا السؤال أن يصدقني. لكنـــي أصـــر علـــى أن يصدقني الآخرون الذين لا يسألون. لم يجب على سؤاله، بل استمر ينظر إليه بصمت. أعادوه إلى الغرفة وهـــو يتســـاءل ماذا سيقرر آخذوه بشأنه؟. حوالي العاشرة مساء، وكان قـــد أعد نفسه لمبيت موحش وخالٍ من الراحة، أخذوه إلى مكتب كبير تحتل نصفه منضدة نصف دائرية بحف. بمقدمتها مـــن الجانبين، مقاعد جلدية سوداء اللون، خلف المنضدة، يجلـــس هادئاً، مستغرقاً في قراءة ورقة بين يديه، ضابط بدا من شعر لحيته ورأسه أنه متقدم في السن وعلى أحد المقاعد، أرخـــى رجل بثياب مدنية يديه في حضنه. بعد أن التقت عيناه بعيني حافل، التفت إلى الضابط وقال له:

- نعم، أعرفه. هذا ولدي حافل.

(٦)

- بشرة يدك مشققة يا أمي، وراحة يدك خشنة، لمـــاذا لا تستعملين الفازلين لترطيب البشرة؟

- موجود عندي، ولكني أنسى استعماله.

- ودواء السكر؟

- موجود أيضًا.

- وتنسين استعماله أيضًا؟!.

- لو نسيت أنا استعماله، ما نسي السكر استعمالي.

- بالصدفة وجدت مشطك، أمس، الذي فقد منك الشهر الماضي.

- صحيح؟ أين؟

- بين السرير، والجدار. هل تتذكرين يوم غيرنا وجهة السرير إلى الجهة الشرقية من الغرفة.

- نعم.

- لا بد أنه وقتها سقط في الفجوة التي بين الســـرير والجدار وبقي منذ ذلك الوقت في مكانه.

تتذكر أنها بحثت عنه في كل مكان، إلا في ذلك الجزء المعتم الذي يقف فوقه السرير، ويحجب عنه النظر. كان من

عادتها، أن تضعه في درج الدولاب الصغير الذي يكون مباشرة أمامها عندما تكون على كرسيها، ويكون السرير على يمينها، بينما باب الغرفة ينتصب موصدًا في الجهة اليسرى. لكن عندما تغير موقع السرير، ارتبكت عادتها في وضع الأشياء في أماكنها وبقيت فترة من الوقت تنشئ ذاكرة جديدة لترتيب أشيائها الخاصة في الموقع الجديد. لكن ذلك المشط بالذات، ما كان لها أن تضيعه بتلك الطريقة. كان عليها أن تحافظ عليه في موقع لا تغفل عنه العين ولا تخطئه. وردت عليه بصوت يبدو عليه أنها بذلت جهدًا لجعله هادئًا:

- عندي مشط آخر. لكن لماذا استحق ذلك المشط اهتمامك إلى هذه الدرجة؟
- نعم، يا أمي. فوجئت أنه أخذ معه كمية كبيرة من شعر رأسك.
- وما هو الغريب في ذلك؟.
- يتساقط شعر رأسك بكثرة، كما لاحظت.
- نعم. وما زال.

- معظم الشعر كان يميل لونه إلى الأحمـر، وكـان قصير الطول وخشناً.

هل حقاً، يتمتع ابنها بدقة الملاحظة إلى هذا الحـد؟!. تساءلت. إن كان ذلك صحيحاً، فهل كان بخبث ومكر طـرح السؤال، أم كان على نيته لحظة أن سـأل؟. لا تسـتطيع أن تؤكد أي الجانبين كان الأقرب، لكنها أمام هـذه الملاحظـة المفاجئة لا تملك إلا أن تأخذ دور الذي يسأل هذه المرة؟:

- وهل ترى أنه لا يعجبك في أمك أن يكـون لـون شعر رأسها أحمر؟
- كان طويلاً وذا لون أسود. عندما كنت في بعـض الأماسي تدهنينه بالزيت، كنت أحدق فيـه أحيانـاً وأنا إلى جوارك أذاكر دروسي.
- وتظن أني أستعمل أصباغ الشعر كما يفعلن فتيات اليوم، وأني أستعمل اللون الأحمر بالذات؟.
- كنت أسأل لماذا أنقلب لونه إلى اللون الأحمر فقط.

الآن، على الأرجح، عرفت لماذا كلما رآها تكشف عن شعر رأسها لتلمه في المشط وتعيد تنظيمه، كان يهمهم بكلام غير واضح، ويكف عن الحركة أحياناً تاركاً عينيـه علـى

حيث يكون المشط؟!.. عندما كانت تسأله عن السبب، كان لا يجيب بشيء من الكلام الذي تحتاج سماعه. نعم تغير لون شعر رأسها إلى اللون الأحمر ولعل ذلك، كان سبب تصرفه الغريب تجاهه:

- اطمئن. لقد تغير لونه لأني أضع عليه شيئًا من الحناء. رغم ذلك ها هو قصير ولا ينفع فيه التمشيط.
- يقول بعض الناس أن مياه التحلية بها مواد كيماوية تؤثر على الشعر والبشرة.
- لا أدري يا ولدي. لكن هذا الماء الذي يأتي من البحر، يشرب منه الناس كلهم ويستحمون به منذ سنين طويلة ولم أسمع أن أحدًا اشتكى منه بقدر ما كان الناس يشتكون من انقطاعه أحيانًا.
- كان المشط من النوع الخشبي القديم ذي الأسنان الصلبة الحادة.
- تعودت عليه في صغري، كانت أمي تمشط شعري به، وكنت أصيح من الألم حينما يمر على جلدة رأسي، لكنها لم تبدله، بل استمرت في استعماله

إلى أن ماتت. وعندما تفقدت أغراضها القليلة بعد وفاتها وجدت أن من أقربها إلى نفسي ذلك المشط فأبقيته لرأسي.

- عمره أكبر من عمري إذًا. لو كان أخًا لي لكان الآن متزوجًا وعنده أولاد.
- لطالما تمنيت أن يكون لك أخ أو أخت. لكن ذلك أمر الله.
- وما هو السبب يا أمي؟
- لا أدري.
- هل كان القصور منك أم منه؟

لماذا يتحدث الآن في أمور مر عليها زمن طويل، وتجلب إثارتها من جديد الألم في الروح؟!. ورأت أنه تمادى في فضوله. هذا الولد الذي راحت تكتشف مجاهله في هذا الليل الموشك على بلوغ منتصفه، لن يدعها بمنأى عن الارتداد قسرًا إلى حضن آلام مضت. رغم ذلك. ترى أن مجرد أن يعرف بما حدث، يلقي عنها ثقل الكتمان بحجة أنها أمور لا تعنيه. لم تكن تتصور أن يمر كل الوقت ولا يسأل مثل هذا السؤال. كانت تؤمن أنه سيأتي وقت، يسأل فيه ابنها

لماذا وجد وحيدًا ويقي على ذلك إلـــى الآن؟ لا بـــد، إذًا، أن تتهيأ لذلك السؤال بإجابة واضحة لا لبس فيها ولا مداورة:

- هو كان يقول لي أنني السبب إلى أن غضبت ذات يوم فطالبت بإجراء تحاليل طبية لي وله، لنعـــرف أينا السبب إن كان هناك أسباب حقيقية بالفعل.
- وماذا كان جوابه؟
- في البداية تجاهل طلبي، لكني لم استسلم. ألححت عليه كثيرًا وأبديت له رغبتي في حسم الموضوع بشكل نهائي، وكان وقتها يعيش معظم وقته وهـــو يفكر في الزواج بأكثر من امـــرأة لتكثيـــر الأولاد والبنات كما كان يقول. فوافق على إجراء الفحص الطبي.
- وماذا حدث بعد ذلك؟.
- التحاليل الطبية التي أجريت لي لم تثبت ما كـــان يخشاه مني. كنت سليمة تمامًا من العقم، ومشاكل الرحم الأخرى.
- وهل أجرى هو تحاليل لنفسه؟.

- قال لي في وقتها أنه أجرى اختبارات عديـــدة وأن النتائج كانت إيجابية.
- لكنه منذ ثلاث سنوات وهو مع النصـــرانية ولـــم يحصل حمل. هل تظنين أنه كان يكذب عليك؟
- لم يعد الأمر يهمني الآن.
- لكنه الآن يفكر في تطليقك منه بجدية يـــا أمـــي. ألم تسمعيه وهو يقول بأنك شيء زائد في كرتون أو شيء من هذا القبيل؟. إنه يعني بذلك أن وقـــت التخلص منك صار وشيكًا. وهذا ما يخيفني حقـــا. من كان يتوقع أن يحدث هذا الأمر وبهذا الشكل؟
- وهل تعتقد أنه سيطلقني بالفعل؟
- الذي أعرفه أن الطلاق صار شيئًا عاديًا. مـــا دام أننا صرنا نسمع أن البعض يتزوج ويطلـــق فـــي السنة أكثر من امرأة، حتى أصبح من عادة بعض الأغنياء والوجهاء، أن يحضر مأذونـــه الشـــرعي معه في كل مكان يذهب إليـــه. مـــن المؤكـــد أن الطلاق سيصبح عندها شيئًا عاديًا. لا أدري متـــى

قرأت في إحدى الصحف أن نسبة الطلاق في المجتمع مرتفعة بدرجة كبيرة.

- لئن طلقني بغير حق لأشكونه إلى المحكمة. لقد التزمت الصمت عندما تزوج، وقلت لنفسي هو معذور، إذ ماذا سيستفيد من امرأة مثلي مشلولة لا تنفع نفسها. لكن أن يطلقني بعد ذلك فهذا هو الأمر الذي لن أسكت عليه أبدًا.
- وأين ستعيشين لو طلقك؟.
- سأعيش معك..
- أحيانًا، أتمنى أن أكون تاجرًا كبيرًا، عندي أموال وبيوت لأسعدك.
- السعادة لا تأتي بالأموال والبيوت يا ولدي، ثم أنت الآن تسعدني كثيرًا وأنت بالقرب مني. هذه هي السعادة التي يمكن أن تقدمها لي.
- لن أفارقك.
- ليس لدي في ذلك شك.
- لكن أين سنعيش لو طلقك أنت، وطردني أنا؟

- لا تجعل هذا الأمر يشغلك الآن. لم يحدث شيء بعد.
- هل سنعيش في الشارع يا أمي؟
- حافل، حبيبي، لماذا تعتقد أن ذلك سيحدث. قلت لك لم يحدث شيء بعد.
- لكني أعرف أنه سيحدث. منذ زمن طويل وأنا لدي إحساس بأنه لم يعد لديه رغبة في هذا البيت، ولا بمن فيه. لا أنت يريدك، ولا أنا فكر بي بطريقة تشعرني أنني ابنه.
- أنت ابنه طبعًا، يا ولدي، وهو لن يفرط فيك أبدًا.
- لكني لا أشعر أنه أبي. هل تصدقيني إذا قلت لك أني أحس بالعم فائد كأب أكثر منه؟.
- هذا من وساوس إبليس اللعين. دعنا من هذا الموضوع الآن، وقل لي لماذا لم تخبرني أنك كنت محجوزًا عند الشرطة في الحبس؟ ولماذا كذبت عليّ وقلت بأنك مع مسلط؟
- أمي، خشيت أن تتأثري بالخبر أو تغضبي مني لأني دخلت الحبس كما تصفين غرفة التوقيف.

لكني كنت قبل أن يدخل أبي أتهيأ لإخبارك بالحقيقة. هل آتي بالفازلين لأدهن يديك؟

- ها هو في جيب الكرسي. لكن لا تتعب نفسك، أستطيع الاهتمام بحالي في مثل هذه الأمور.
- لقد وجدته. ووجدت كرتونة أخرى معه.. لكنها فارغة على أي حال. ربما هي كرتونته.
- الفازلين نشتريه بدون كرتونة من البقالات. لا بد أنها كرتونة دواء السكر. دعني أراها.
- ها هي.
- لا . ليست كرتونة دواء السكر. لا أتذكر ما كان بداخلها. تخلص منها. هناك الكثير من الأشياء بالبيت أصبحت زائدة وينبغي أن نتخلص منها.
- مثل ماذا يا أمي.. أوه، يدك ناشفة جدّا حتى على الفازلين. لو ثنيتها لربما نز الدم من الرسغ. المهم، أخبريني يا أمي، مثل ماذا تلك الأشياء التي أصبحت زائدة بالبيت وينبغي أن نتخلص منها؟
- كثيرة يا ولدي، إنها أشياء يحتاج فرزها إلى يوم كامل على الأرجح.

- لست على عجلة من أمري. أستطيع أن أنتظر ذلك اليوم إلى جوارك. لكن هل يمكن لي أن أعرفها؟

- غرفة النوم أول هذه الأشياء، وملابسي القديمـــة، وأحذيتي جميعها باستثناء الصندلين. أيضا لم أعد بحاجة إلى معظم الحقائب وعلى الزينة والماكياج، وفي المطبخ يوجد الكثير من الصحون والأكــواب والأواني التي لا أحتاجها. وأشياء كثيــرة أخــرى كما قلت لك.

- وهل هذا معقول يا أمي؟.. هل تريدين أن تسكني في بيت خاوٍ لا يوجد به شـــيء مــن المتـــاع؟. لو عرف بعض نساء الحارة بنيتك هذه، لتودد إليك ولجاء إليك مرة بعد مرة يتبارى في كسب ودك.

- منذ أن لزمت هذا الكرسي، صار سهلاً أن أقتنـــع بأني أعيش في بيت كبير عليّ. بيــت أغراضـــه كثيرة إلى درجة أنها تحولت إلى هم يثقل قلبـــي. في المطبخ مثلاً، يوجد الكثير من الأوانـــي التـــي لا أستعملها على الإطلاق. أحيانًا، عنــدما تعيــد

ترتيبها الخادمة أو تقوم بتنظيفها من الغبار تحدث أصواتاً مزعجة تجعلني لا أطيق البقاء في البيت.

- ولكنها نفس الأغراض التي اشـــتريتها ذات يـــوم، وكانت تحدث نفس الضوضاء والصخب.

- هذا صحيح، ولكن كان ذلك في المناســبات. فـــي ذلك الزمن، كانت لا أدع أحدًا سواي يهتم بها على الإطلاق، كنت أوضبها للأكل، وأغسلها، وأرتبها، وأنفض عنها الغبار، والذي ينكسر منها أبدله فـــي الحال.

- وكنت تستمتعين بأصواتها أثناء غسلها، وترتيبها. أليس كذلك؟.

- بلى ، وما كنت أرتاح حتى أراها كلها في أماكنها نظيفة ومرتبة.

- أعطيني يدك الثانية. الفازلين هذا ليس من النـــوع الأصلي يا أمي. نوعية مقلدة وأثرها سطحي على الجلد. من الذي اشتراه لك؟.

- أنت.

- حقا؟. لا بد أني كنت لحظتها مشغول البال. الغشاش مرشد لا يكف عن تصريف بضاعته المغشوشة حتى يرمى به في السجن. سأعيد له هذه العلبة وأبصق على لحيته المنتوفة. تصوري، وجدوا عنده قبل أسبوعين علب سردين منتهية تواريخ صلاحيتها من ثلاث شهور. أقفلوا المحل أسبوعًا كاملاً ودفعوه غرامة مالية لكنه عاد إلى الغش.
- ليست من عند بقالة مرشد. لقد أحضرتها مع دواء السكر من الصيدلية. صيدلية الوفاء. هل نسيت؟!.
- هذه العلبة من صيدلية الوفاء؟! كيف حدث ذلك؟! لا بد أنهم ضحكوا عليّ فهم هؤلاء المندوبون الذين يتجولون بين المحلات كالدود لبيع بضائعهم وتسويقها. ما علينا يا أمي. سأعوضك علبة أصلية يوم غد.
- يوم غد، موعد المقابلة مع المعهد المهني. أليس كذلك؟
- نعم، تذكرت، كدت أنسى .

- لقد أصبحت كثير النسيان؟
- يبدو أنها مشكلة جديدة يا أمي أصابتني، لكن لا بأس سأعالجها بطريقتي. هناك الكثير من المشاكل لا نحتاج إلى البحث لها عن حل سوى عن حل واحد هو أن نتجاهلها. وسوف أتجاهل بطريقتي هذه المشكلة، مشكلة النسيان. أمي، خاتم يدك منطبق تمامًا على البنصر ولا أستطيع تحريكه لتطريب الإصبع بالكامل.
- نعم. ذلك لأني منذ أن لبسته لم أخلعه.
- هل هو أيضًا أحد الأعراض التي تركتها جدتي، رحمها الله لك؟
- بل جاءني من عمتي هدية بمناسبة زواجي. رحمها الله كنت أحبها كثيرًا وكانت هي تبادلني نفس المشاعر. وقد حزنت كثيرًا عندما لم تستطع حضور زواجي فاضطرت إلى أن ترسل هذا الخاتم لي ومنذ ذلك الوقت لم أنزعه من إصبعي.
- من الفضة كما يبدو.
- أجل، من الفضة وفصه من العقيق الرماني.

- لا أعرف في هذه الأشياء. هل هو من النوع الجيد؟
- تقول عمتي أنه قص مصنع باليد. جاءها من صنعاء في مقبض خنجر أثري قديم اشتراه جدنا من أحد التجار في صنعاء. توصيني عمتي أن أطيل النظر فيه كلما تنغص خاطري أو تعكر مزاجي. لونه جذاب يريح العين، وبريقه يسر الخاطر ويبعث عليّ البهجة كما قالت.
- لكني لا أري له بريقًا، ولا جاذبية.
- أنظر إليه في نور النهار وليس الآن في الظلام يا فطن. ربما ذات يوم، تلبسه وترى بنفسك لونه وبريقه ولكن ليس الآن، بل عندما أموت. هل سمعتني.؟
- عمرك طويل إن شاء الله يا أمي، بل هو لك وأنا أحب أن أراه في يدك لأنه فيها أجمل.
- هذا الخاتم يجب أن يبقى في العائلة، فهو خاتم أصيل وذكراه يجب أن تدوم معنا يدًا عن يد.

- تعنين أنه من الأشياء الهامة في البيت، وليس من الأشياء الزائدة التي تريدين التخلص منها؟
- بلا شك. أليس جميلاً أن يحتفظ الإنسان بمثل هذه الأشياء التي تأتيه على شكل هدايا أو على شكل ذكرى جميلة لأناس كانوا وهم أحياء يحبونه ويتمنون له الخير والسعادة؟
- بلى، يا أمي.
- عندما أهديك شيئًا جميلاً مثل هذا الخاتم، ألا تحتفظ به لنفسك وتضن به على الآخرين؟
- بلى ، هذا مؤكد.
- وأنا أيضًا أؤمن بذلك.. بينما تلك الأشياء التي تملأ البيت وأنا لا أحتاجها الآن ولا مستقبلاً، ليست لها نفس القيمة ولا نفس المحبة. كما أني أكتفي منها بالقليل في الوقت الحاضر، وكلما تخفف الإنسان مما لا يحتاج ، وجد نفسه أكثر راحة، ووجد المكان أوسع وأقل ضوضاء.
- ربما هذا هو منطق أبي أيضًا.
- خذني إلى غرفتي، لأريك بعض الأشياء.

- ولكن، لحظة.. يا أمي لم أبدأ بقدميك بعد.
- في وقت آخر إن كنت مصرًا على ذلك.. هيا معي.

واضطر إلى النهوض بسرعة، بعد إذ بدأت بالفعل تحرك العجلات لتوجيه الكرسي نحو الممر المؤدي إلى غرفتها، واستلم دفة القيادة ، وشعر بخدر الجلوس الطويل يغمر قدميه، وضربات الدم المتصاعدة، أحس بها تصل إلى رأسه أسرع من المعتاد، فشعر بدوار خفيف في الرأس. كان عليه بيجامة خضراء اللون مخططة طوليًا بالأبيض وذات كمين قصيرين. رأسه المكشوفة، ما تزال أجزاء منها رطبة وتعج برائحة الشامبو. ورغم تنامي فضوله في رؤية الأشياء التي فجأة استولى على أمه حماس ظاهر لتطلعه عليها، فكر في طريقة تعاملها الجديدة والغريبة مع أغراض البيت ومتاعه، هل كان بسبب شعورها بقرب انتهاء علاقتها بأبيه، ولذلك تريد أن تتخلص من تلك الأشياء بسرعة قبل أن يأتي وقت لا تستطيع فيه التصرف بها، أم هل كان ذلك بسبب عجزها العضوي عن الاهتمام بها وترتيبها كما من قبل؟!. كلا الحالين سيئ بالنسبة إليها، ومع ذلك فقد بدت مرتاحة في

الحالين سيئ بالنسبة إليها، ومع ذلك فقد بدت مرتاحة في الحديث عنها وعن نفسها. لو حسب حافل كمية أواني المطبخ التي يمكن أن تندرج ضمن الفائض عن حاجة أمه كما تتصور، لانتهى إلى نتيجة شبه مؤكدة هي أن المطبخ سيغدو فارغًا إلا من رفوفه وبعض العلائق البسيطة التي تستعملها لحاجاتها اليومية كالكوب وإبريق الشاي وأدوات الطبخ القليلة. بل أكثر من ذلك، سيغدو البيت فارغًا إذا ما أضيفت إلى القائمة، غرفة نومها وملابسها وبقية أغراضها الأخرى وطوحت بها إلى الخارج. وتوقع حافل أن ما سوف يراه من أشياء بعد لحظة، إن هو إلا من هذا القبيل على الأغلب. لكنها بالرغم من ذلك بدت مرتاحة، بل وتشعر بابتهاج وغبطة وهي تتحدث معه عنها.

- اجلس هنا.
- ما بكِ أخرجت كل أغراضك الخاصة من أدراجها يا أمي؟ هل تنوين التخلص منها أيضًا؟
- وما حاجتي بها الآن؟
- كل هذه لست بحاجة إليها؟

- انظر، هذا العطر نال إعجاب صديقتي فيحاء فنويت أن يكون لها. تقول أن ماركته لا توجد بالسوق. وقالت أن زوجها مولع بماركات العطور القديمة وخصوصًا هذا العطر. أمّا طقم التجميل هذا فقد اشتريته بالغلط من الأساس لذلك لم أستعمله وربما يليق بصاحبة الكوافير، حصة المويلح.
- مهلاً، مهلاً، لا بد أن هذه الأشياء كلفتك مالاً كثيرًا، وتريدين أن تبدديها على النساء هنا وهناك؟!. إنها أشياء تخصك وتخص البيت، ولو تبددت بهذا الشكل لذهب الكثير مما يخصنا في هذا البيت يا أمي.
- إنها تخصني وحدي. وحدي فقط. لم يدفع أبوك فيها ريالاً واحدًا كما أنها لا تخصك أنت أيضًا. كل ما في هذا البيت من فلوسي أنا.

جنّت أمي. قال لنفسه وهو ينقل بصره بين مقتنياتها المبثوثة على أرضية الغرفة وفوق المنضدة الصغيرة لصق السرير. لم يجلس بعد، أمّا هي، فافترشت بمساعدته موكيت

الأرضية مستندة على السرير، وبين يديها الأغراض، تجمعها إليها تارة، وتعيد تارة أخرى توزيعها من جديد على الفراش. يعتقد حافل أنها المرة الثالثة أو الرابعة تقريبًا التي يرى فيها شعر رأس أمه الأحمر المتقبض كلــه. كانــت لمــا قعــدت بمشقة،انحل غطاء الرأس وتراجع إلى مستوى كتفيها فأبقتــه على حاله. رغم ذلك، مست حافل شدة التغير التي أصـــابت شعر رأسها. جعلت أطراف الشعر القصيرة المنعقد بعضـــها على بعض، يشعر أنه هو أيضًا تغير دون أن يدري، تغيــر من ولد حدث السن، يقلب صفحات كتبه المدرسية بجوار أمه ولا شيء آخر يهمه في الدنيا، إلى شاب في طلائع العشرين كل ما يخشاه، هو أن ينفجر بسرعة انفجار صاروخ في اليد. وهي المرة الأولى التي يرى فيها أحد دواليب غرفة نوم أمه مفتوحًا على آخره بينما محتوياته مطروحـــة علـــى الأرض بشكل فوضوي. لم يسلم مـــن ذلـــك إلا الحقائـــب الكبيـــرة الموضوعة فوق الدولاب بلونها الشاحب بسبب الغبار وقلـــة الاستعمال. بدا عاجزا عن فعل شيء لإقناع أمه بالعدول عن رأيها. حتى القدرة على الكلام، شعر أنها تخونه أو أن تفكيره تشتت فذهل عما يريد أن يقول. معها حق، قال لنفسه، فهـــي

صاحبة الشأن في التصرف بهذه الموجودات لأنها تخصها، وفي نفس الوقت، تساءل، ألا يحق لي أن أتصرف أنا أيضًا بما يمليه ضميري تجاه كل ما له علاقة بالعائلة في هذا البيت؟. رفضت أن تمنحه شيئًا منها عندما طلب أن تسمح له بحفظها في أماكنها على أن تكون له. قالت أن ما جاء عن طريقي يذهب عن طريقي، وإذاك لم يجد بدًا من أن يصارحها بأن ما تفعله إنما هو ناتج عن شعور بالخوف من وقوع الطلاق وينتهي كل شيء. أو الخوف من شيء لم يحدث بعد كما قالت في الصالة:

- ألم تقولي قبل قليل أنه لم يحدث شيء بعد؟
- بلى، ولكن ليس لهذا علاقة بذاك؟
- بل له علاقة مؤكدة يا أمي، تخافين أن يصبح الطلاق أمرًا واقعًا غدًا أو بعد غد وتكوني قد خسرت البيت وما فيه. ولذلك تريدين أن تخرجي من البيت وهو فارغ تمامًا.
- حقًا؟
- هكذا أتصور. بل أنا متأكد مما أقول.

- وعلى افتراض أن كلامك في محله، فلماذا رفضت أن أعطيها لك أنت؟
- لا أدري.
- من الأفضل أن تدري. لأنك ، في الواقع، لم تطلبها لنفسك، بل طلبتها من أجلي. من أجل أن تبقى في البيت كما هي الآن لتكون لي. حسناً، في دولاب الملابس فساتين حفلات جديدة تريدها أن تكون لي. يوجد بلوزات وتنانير لسهرات لم تحدث أبداً تريدها الآن أن تكون لي. بل تريدني أن أستعمل لتسريح شعري آلة تصفيف الشعر هذه التي لم أسمع لها صوتاً من عامين ونيف. وماذا بعد تريدني أن أفعل؟!. أنت تطلب مني تلك الفساتين والتنانير والبلوزات والأحذية لتكون لك كما تقول. ماذا ستفعل بها؟!. لتلبسها؟!. لتعطيها زوجتك مثلاً ؟! لتمر عليها كل يوم وتتمسح بها بعد أن تتأكد أنها في حالة جيدة.؟! فكر جيداً. لم تعد تصلح لي هذه الأشياء، كما ليس من أحد آخر بالبيت يمكن أن يأخذها لنفسه، فماذا تطلق عليها

في هذه الحالة؟!. تحف أثرية؟!. بل هـــي أشـــياء زائدة عن الحاجة ويجب أن نبحث عمن يحتاجهـــا من أهل الحي أو في الجمعيات الخيرية. صـــدقة عن أمي وأبي.. تكافل اجتماعي.. عمل خيـــري.. أيًّا تكن المسميات، لا بد من التخلص منهـــا. أمـــا أبوك، فليس له علاقة بالموضوع، لا من قريـــب، ولا من بعيد.

- حسنا، كما تشائين يا أمي. لا تغضبي. ما دام أنك مصرة على التخلص منها بتلك الطريقة فـــاتركي الأمر لي، وسوف أفعل ما يسر خاطرك.

فتح دولاب الملابس على مصراعيه. فجأة، انتصـــبت أمامه أمه الشابة ذات اللحم الخفيف والقـــد المعتـــدل. فـــي مجموعة من الفساتين الطويلة ذات الخامة المؤلفة من القطن والبوليستر أو من الصوف بالكامل. في الثلاثين من العمـــر، عليها عباءة سوداء ضافية، تدقق فـــي مقاســـات الفســـاتين وتتفحص باهتمام شديد نوعية القماش ولونه. ومن فستان إلى آخر، تساوم في الثمن وتبدي الملاحظات على الســـلعة فـــي مناورة تقليدية لاختراق القيمة لصالحها. ثم في مكان آخـــر،

وزمن آخر، بدأت أمام صف البلايز والتنازير في سن أصغر وتجربه مختلفة. ليس خبيرًا حافل في ملابس النســـاء، لكنـــه يسمع أن المراكز التجارية الشعبية التي تتاجر بها كانت قليلة في ذلك الوقت ومع ذلك تدرك جيدًا ماذا تريد المرأة، وفـــي نفس الوقت كانت تسمح بالمساومة ما أن ترى الزبون يدخل بجدية في نية الشراء. هل كانت في أقل مـــن عمـــره الآن، حينما اتجهت ذات مساء على الأرجح إلى أحد تلك المراكـــز مندفعة بحب الموضة إلى قسم البلايز والتنانير ولفـــت هـــذه المجموعة في فاتورة واحدة؟!. لا يعرف الجواب، لكنه يسأل فحسب. وبالطبع، لن يسألها، لإحساسه بأن الصمت في هـــذا الشأن هو الشيء المناسب الذي عليه القيام به. فـــي الـــركن الأيسر للدولاب، ظهرت ثيابها التي تســـتعملها فـــي الوقـــت الحاضر، وهي بشكل عام ذات ألوان فاتحة وأطوال ســـابغة لا تفسح مجالاً لفضولي مثله في طرح فرضـــيات خاطئـــة. أزمان متعددة وملونة محبوسة في النسيج الذي توقف بدوره عن الحركة، وانغلقت عليه أبواب الدولاب. معها حق، همس حافل، معها حق في التصرف بثيابها كما تريد. نعم، صـــار

محالاً بالنسبة لها أن تلبسها مرة ثانية، كما هو محال أن تعود شابة في الثلاثين.

ألقى نظرة خاطفة على أشيائها المبعثرة بـين يـديها فرآها كما هي على الأرض دون أن يـنقص منهـا شـيء. وحدها قارورة العطر التي قالت أنها تصلح لفيحاء ارتفعـت إلى حافة السرير بعدما كانت على الموكيت. وتساءل من هي فيحاء؟!. امرأة من؟! هل يوجد بالحارة امرأة اسمها فيحاء؟. أو لعلها فيحانة الزويملة، تلك المرأة المجنونة التي طردهـا زوجها منذ أكثر من ست سنوات فصارت تعيش عند أخيهـا وتنام على أعصابه. تناول الصف الأول من الثياب ووضعه على الأرض ليبدأ في ترتيبه داخل كرتـون فـارغ أعدتـه للمهمة. وراح يتصور على أي حال تؤول الأمور، لفيحـاء العطور، ولحصة أطقم المستحضرات التجميلية، ولبقية نساء الحارة الملابس وربما كانت زينب معهـن، وصـيته أخـت مسلط، وأمه العرجاء وأخريات لا يعرفهن. أطقـم صـحون الخزف، للأرملة مرسى بدون شك حيث يعتقد حافل أنها في رأس القائمة لعلمه بأن أمه تخصص لها كل يوم جمعة طبقـاً من الكبسة باللحم مـع بعـض الفاكهـة. القـدور الكبيـرة

والصحون التي أعدت للأكل الجماعي افترض حافل أن أمه ستهبها لعائلة المؤذن المريض المعدم، لإحداث الضجيج في بيته فحسب. الأباريق، والأكواب الكثيرة، لحفلات أعياد الفطر عند المختارية الموريتانيين شرقي الشارع العام. وماذا بعد؟!. تعثرت مخيلة حافل في توزيع بقية الأواني فعجز عن تذكر الأسماء التي بأهلها حاجة لتطعيم مطابخهم بأواني من مطبخ السيدة سجود. غدا، تصبح على كل مدخل لأية حكاية تتحدث عن عجائب العالم. امرأة استبقت الأجل، وتحركت فيها وصية غريبة بتوزيع محتويات بيتها على الحريم في الحارة، وهي لما تزال على قيد الحياة. قهقه من الداخل، وتمنى في تلك اللحظة لو أنه بالخارج، منهمك في إعداد مقدار كبير من الصواريخ لإطلاقها في الفضاء. بل إنه، وليس يدري كيف حدث ذلك، تمنى لو أن في يده سيجارة حمراء الرأس يشفط منها القطران. عندما يتحرك في البيت مساء غد أو بعد غد يتوقع أن تحدث خطواته على أرضية البيت دويًا غريبًا أشبه ما يكون بدوي خطوات الغوريلا كينغ كونغ بوندي في أفلام الكرتون، حيث سيكون البيت بلا متاع.

انتبه إلى أنه يسخر من أمه، ومن رغبتها في الصدقة، استغفر الله. غير أن ذلك لم يحجب عن كبـده لذعـة مـن الحسرة على متاع البيت الذي سيزول من الوجود في وقـت وجيز. نساء الحي لا يفهمن القصة عندما تتحدث امرأة منهن عن المشلولة التي أخرجت أواني مطبخها في كراتين للناس، ماذا يا ترى، سيكون عليه مدار حديثهن في هذا الموضوع؟. سيتندرن بالتأكيد على قلة عقلها إن لم يصمنها بـالجنون. سيتحدثن بكثير من الحرص على إثارة الانتباه، عن المرات العديدة التي ذهبن فيها إلى الأسواق لتكميل مطابخهن بكـل جديد. ثم برءوس ملتوية وأكتاف تتحرك اسـتغرابًا أعلـى، سيجدن المفارقة غريبة وغير قابلة لأي تفسير منطقـي، وإذا ما كانت فيحاء تلك بينهن، عندئذ ستقول أنها للأسف لم تظفر منها إلا بقارورة عطر ذات ماركة قديمة وغيـر موجـودة بالأسواق اليوم، خزين غير مرغوب فيه يعنـي!. ويـزداد الأمر سوءًا، كلما كان جمع النسـاء خليطًـا مـن أرامـل وعزباوات بدويات يائسات، حيث ستذكر إحداهن الأخريـات بما فعلته الحضرمية "المُحرُوْلَة" ، بـ "قرابـع" مطبخهـا، وبـ "خلقانها" التي لا تأكلها النيران. كان أول ما سمع كلمـة

"مُحرَوْلَة" من أم مسلط، حيث سألته عن أمه وعن أحوالها ثم تمنت لو أن أمه أطاعتها فتداوت بتركيبة علاجية كانت قد استجلبتها من خبيرة في الطب الشعبي بالشمال، ثم ساقت قصة عن امرأة "مُحرَوْلَة" منذ عشرين سنة، تعافت بعد أربعين ليلة من استعمال العلاج. عندما سأل حاقل صديقه مسلط عن معنى كلمة "مُحرَوْلَة" قال إنها تعني المرأة المشلولة، أي مثل أمك:

- أمي، من هي فيحاء هذه؟!.
- امرأة، رأيتها لمرة واحدة هنا، في هذا البيت.
- لمرة واحدة، واعتبرتها صديقتك؟!.
- لم تجلس سوى ساعة واحدة، لكنها كانت بعمر طويل. أحببتها كثيرًا واعتبرتها صديقتي نعم.
- لماذا لم تكرر زيارتها لك ما دام أنها بهذا القدر من الإعزاز؟
- ليتها هنا، لتعلم جاراتي أن لي صديقة بالدنيا كلها.
- ومن أين هي؟.. من مكة؟
- بل من مدينة الطائف. وكانت قد جاءت للحج العام الماضي ومكثت هنا اليوم السادس واليوم السابع

عند إحدى قريباتها قبل أن تقضي يـوم التروية بمنى. في اليوم السابع زارتني قريبتهـا وكانـت معها، ولست أتذكر من منا جاء بسيرة الـورود؟ عندها تحدثت عن مزارع الورد بالطائف. قالت أن منطقة زوجها، بلاد الشفا، المعلقة في أعالي جبال السروات، تحتشي بمزارع الورد. وأسـهبت فـي ذكره. قالت إن الورد في الصباح الباكر يكون لـه بريق زهري جذاب ما أن يراه الغريب العابر حتى يطمئن وتنتعش روحه. ليس ذلك فقط، بل يمـنح لونه كل ما يعبر المكان من طيور ونحل وضباب حتى.

- كل هذا قالته تلك المرأة؟
- بل قالت أكثر من ذلك قالت أنها تسرح مع زوجها في وقت مبكر جدًا لهدفين مختلفين. هـو يـذهب لبدء قطاف الـورود قبـل شـروق الشـمس لأن الحرارة تفقدها نضارتها، وهي لاغتنام الفرصـة قبل القطاف للمشي بين شجيراتها والتمتـع بشـم روائحها المختلطـة بـالهواء والنـدى والأوراق

والحشرات. وغالبًا ما تنتبذ مكانًا بعيدًا عن العمال، لقطف الورود الخاصة بها، وجمعها في أواني خاصة. تقول أنها تمتلك في بيتها مقطع تقطير صغير للاستعمال الشخصي.

- مقطع تقطير؟!. يعني ماذا؟
- تقول أنها أواني نحاسية كبيرة مجهزة بطريقة معينة لتصنيع دهن الورد. لا أدري في الحقيقة ماذا تقصد بكلامها لأني لم يسبق لي أن شاهدت هذه الأواني. لكنها تشرح لي طريقة التقطير بشكل مبسط للغاية. تقول أن كل جهاز تقطير في المصانع الكبيرة، يتسع على الأقل لعشرين ألف وردة تخلط بمقادير محدودة من المياه ثم تُغلى لساعات في تلك الأواني إلى أن تبلغ درجة حرارة عالية تصل إلى ١٠٠ْ درجة مئوية.
- عشرون ألف وردة؟!. كيف أحصوها؟!. حبذا لو أعرف. بل كيف جمعوها من رءوس الأشجار؟!. لا بد أن ذلك استغرق وقتًا طويلاً. تخيلي يا أمي، وهم يقطفون الورد، يقولون واحدة ، اثنتان، ثلاث

، أربع، أليس ذلك طريفًا؟ وهكذا من الصباح حتى المساء!.

- بل كان ينتهي القطاف قبل شروق الشمس ليبقى الورد محتفظًا بطراوته، كما قالت.
- لكن، يا أمي، أريد أن أفهم، ما دام أن فيحاء هذه لديها مصنع تقطير وتنتج ما يكفيها من دهن الورد، فلماذا تطلب منك قارورة العطر هذه؟
- لا أدري، لكنها أثارت إعجابها، ولم يكن أقل من أن أنوي إهداءها لها في ذلك الوقت.
- كان الأولى بكِ أن تطلبي منها العطر لا أن تقدميه لها. هذه امرأة لا بد أنها غنية جدًا.
- لقد كانت جلسة لا تنسى. استفدت منها كثيرًا وخصوصًا عن الورد. هل تصدق أنها رغم بلوغها منتصف العمر، كانت بنضارة الوردة، تأثيرها على المستمع بكلامها وقوة حضورها ورقة أحاسيسها، كان لا يقاوم. تقول لي أن أجود الورد بالطائف يسمى الجوري، وما أرها إلا من هذا الورد.

- نعم ، نعم، الشفا مكان جميل للغاية، والورد فيه لا بد أن يكون كذلك، وأيضًا النساء لا بد أن يكن جميلات رقيقات مثل فيحاء. أنا زرت الشفا أكثر من عشرين مرة وما زلت أتمنى زيارته، لكنه في وضعه الحالي غير مكتمل من ناحية سياحية، لا فنادق، على مستوى، ولا حتى نظافة في متنزهاته. الأسعار غالية جدًا لمن يريد الإقامة حتى ولو في خيمة واحدة. لكن فيحاء هذه بصراحة يا أمي فاتت عليك. كان من المفروض أن تقوي علاقتك بها لتملأ بيتنا بعطر أوانيها على الأقل. أنا سمعت أن التولة من دهن الورد الصافي تباع بآلاف الريالات، وهو عادة ما يذهب إلى الأمراء وشيوخ الخليج، فلو أنك طلبت منها تولة واحدة لكان أفضل من أن تمنحيها قارورة عطر لا تقدم ولا تؤخر أمام بضاعتها. عندي فكرى رائعة.
- ما هي؟

- بدل أن نضيع جهدنا في توزيع أواني مطبخك على فلانة وعلانة من نساء الحي البخيلات المقترات على أنفسهن، ما رأيك أن نصفها وننظفها ونلمعها ونرتبها في أوعية نظيفة ثم نقدمها لفيحاء هدية عندما تأتي لزيارتك في المرة القادمة. متى ستزورك يا أمي؟
- لم أسألها في ذلك الوقت، لكني أعلم الآن أنها لن تزورني على الإطلاق. وهذا ما يجعلني حزينة.
- لن تزورك؟! لماذا؟.
- توفيت قبل شهرين في مزرعة زوجها. لدغتها حية من الجبال فماتت على الفور.
- ماتت؟!! لدغتها حية؟!! إنا لله.. والله لقد أحببتها تلك المرأة.
- قل رحمها الله.
- نعم، رحمها الله. والآن ماذا ستفعلين بقارورة العطر؟
- لقد فكرت أن أهديها لقريبتها. إنها أيضًا صديقتي وهي امرأة طيبة.

- لن تشعري بالندم إن فعلت ، فمادام أنها قريبتهـــا، فليس ببعيد أن تشبهها في خصلة ما.
- ربما.
- أمي إنها الثانيـــة فجـــرا، وأنـــت متعبـــة لا بـــد. ألا تأخذي قسطا من الراحة؟.
- إن كنت تريد ذلك فلا بأس.

(٧)

اسمح لي يا حضرة الضابط أن أبدأ هكذا، لكن أرجو ألا تقاطعني ، لأني أنسى بسرعة وعندها أضطر إلى أن أبدأ من الأول:

ذات مساء من أيام صيف لم يمر على المنطقة أخف ولا ألذ منه، جاءني صديقي خلف الذي يمتلك الآن معرض الرواج للسيارات المستخدمة، وفي نفسه شيء. مرتبكًا كان. يقوم ويقعد، ويتنحنح، ثم يتنحنح، وأنا بطبعي حاد المزاج لا أحب الشيل والحط في الكلام وخاصة من خلف الذي كان في ذلك الوقت على قدر حاله من الغنى والعيش المحدود، قلت هيا هاتها، هاتها بسرعة قبل أن أخرج في شأني، ماذا تريد أن تقول؟!. قال: أريد أن أتزوج.. طبعًا، مرت لحظات قبل أن أتأكد أن عقلي الذي ركبه الله في رأسي ما زال في رأسي، ودارت بي الأرض ولم تدر، لكني استدرت دورة كاملة حتى عدت لوضعي الطبيعي وحضنت خلف بهدب عيني. والله، ثم والله لقد فرحت، يا حضرة الضابط أبا إبراهيم، لما قال لي ذلك الخبر. صار لي مدة طويلة وأنا

أقول يا خلف تزوج، يا خلف تزوج، قبل أن يطـش المـال ويطيح الحال، لكنه كان يرفض الزواج قبل أن أتزوج أنـا.. وكنت أقول له كيف أتزوج وصورة "جزعا" في بـالي منـذ عشر سنوات؟!. كنت أقول له يداي لا تقويان علـى حمـل امرأة بعد "جزعا" وساعداي هذان هما الشاهدان على كلامي إلى أن أموت. لقد فتلت الحبال، وقطعت جـذوع الأشـجار، وحملت الجنائز، ودفنت الموتى، لكني لا أستطيع أن أحمـل امرأة حية بعدها على الإطلاق. والله، لقد فرحت برغبة خلف في الزواج وكان صدري تلك الليلة أوسـع مـن صـحراء الدهناء، ومن شدة فرحي نويت أن أتصدق بخمسـين ريـالاً صباح اليوم التالي للجمعية الخيرية لرعاية أسـر وشـهداء فلسطين.. طيب، ابنة من يا خلف تريد أن تتزوج؟! قال: ابنة ريدان الحضرمي. يعني صديقي ورفيق أيامي ريدان، الرجل الخلوق الأمين صاحب بقالة "ريدان" للمواد التموينية الوحيدة في الحارة. لكني ما كنت أعرف أن عنده بنات علـى وجـه الزواج غير تلك البنية الصغيرة ذات الغدائر التي تتطاير مع الهواء وهي تجري. وهنا قالوا أنها تلك البنت بعينهـا التـي يريد خلف الزواج بها. سبحان الله. لقد كبرت إذاً تلك الطفلة

وتغطت عن الناس وأصبحت أنثى في وقت وجيز!. وأنا في طريقي إلى بيت صديقي ريدان رأيت البنت تمشـــي بخفــر خارجة من البقالة، فظننتها خرجت من أحد بيوت الجيــران، أو ربما هم ضيوف عند صديقي. لكني تأكدت بنفســي أنهــا ابنته بعدما ناداها باسمها ودخلــت البيــت. ســبحان مغيــر الأحوال يا حضرة الضابط. أنا بعدما شفتها تغيرت أحوالي. صار قلبي مثل خف الجمل الراكض في مقدمـــة صــدري، والدم شعرت به يعطيني قشعريرة دافئة مـــن رأســي حتـــى أخمص قدمي. حاولت أضغط على قلبي، ما قدرت. كتمـــت أنفاسي وتجاهلته. قلت ربما يخف بعد لحظـــات لكنــه ازداد وجيبه. قلت له استح، ليس هذا أوانه. تنحنحت بصوتٍ عالٍ لعله يهدأ ويتركني أكمل مهمتي من أجل الله ثم مـــن أجـــل خلف صديقي. وتذكرت المرحومة "جزعا" وهي تتحرك هنا وهناك في البيت، وفي الحوش، لكن المرحومة، ويا للعجب، لأول مرة اكتشف أنها معي، ولكن جثة ميتة. اكتشفت أنهـــا سحبتني معها عشر سنوات كاملة داخل قبرها. وحزنت، في تلك اللحظة، للغاية، لأن الشعور الكبير بفقدها أعمى عينـــي عن أن أعيش حياتي. بل جعلني أموت معها، أو بـــالأحرى،

لا يصيبني من الحياة إلا الأسمال. عشر سنوات وأنا أحملها على رأسي من مكان إلى مكان، ومن حي إلى حـــي. حتـــى الأعراس ما كنت أحضرها ولا أراها شيئًا يستحق المجـــيء خشية أن أعكر عليها مقامها بأفكار من هنا أو هناك. لكنـــي عندما رأيت تلك البنت الشقية وقد اســتقام قــدها ورتعــت بقدميها في مصب الفتنة والجمال، انسلخ من قلبي كــل مــا يخص جزعا انسلاخ الليل من النهار ووجدتني بدون شــعور مني أدخل على جاري وصديقي ريدان في بقالته واطلب منه يدها. وهكذا تزوجت سجود يا صديقي الضــابط. رحــم الله أباها كان رجلاً شهمًا وفيًا إلى أبعد حد.

ضحك الضابط من القصة ومن طريقة كلامه وحركة يديه وهو يتحدث. مثل كل مرة يلتقي فيها به، كان يحــب أن يسمع منه حكاية أو طرفة إلا هذه المرة، ليس يدري الضابط كيف سأله عن قصة زواجه، فالذي كان يريد معرفتــه هــو كيف هي علاقته بولده حافل، وما كان يريد معرفة شيء عن زواجه. وشعر بالأسى في داخله على ذلك الشخص، خلــف، الذي لا بد أنه فوجئ بعد ذلك بتغير مجرى الأحــداث. فــي مكالمة هاتفية طرح عليه الضابط فكرة زيارته فــي مكتبــه

لرؤيته والحديث معه. وكان ذلك في الظـاهر، أمـا هـدف الضابط فكان للوقوف على مشكلة حاقل ومراقبة العلاقة بينه وبين أبيه من كثب. كان مطلق صديقه منذ أن كانا في سـن العشرين. تعرف عليه، ذات مساء عند أحد الجيران، وكـان قد قدم للتو من الصحراء هاربًا من بيت أبيه للبحث عن عمل في المدينة. كان يدخن، ويلعب البلوت، ويرفع صوته أثنـاء اللعب منشدًا بعض الأبيات الشعرية البدوية الماجنـة. لمـا تخرج الضابط من أحد معاهد الشرطة برتبة مـلازم، كـان مطلق جنديًّا أول في قوة الطوارئ، لكنه تركها علـى أثـر محكومية صدرت في حقـه بسبب قائمـة مـن مشـاكل وخصومات بينه وبين زملائه، وبسبب غيابات متكررة.

بعد زواجه، أذاقته "جزعا" رحيق السكر مـن أزهـار الشوكران السامة التي يقول أنها تشبه حياته، فأصـابه مـس رجيم من جسمها الموغل في نار الشهوة والشبق الجنسـي، فجن بها، ثم تضاءل عنده، بعد موتها ، الفرق بين العمل في ثكنة الجنود التابع لها، وسرير النوم في بيته، صار ينام كثيرًا ببذلته العسكرية وبسطاراه في قدميـه. غـرق فـي بنـات الشوكران من جديد، ولكنه هذه المرة كان من نوع مختلف،

إذا سرعان ما أوعز إلى نفسه بالمثول إلـــى ســـاعة مـــزاج يقضيها وحده أو مع رفقة خاصة في تناول الحبوب المخدرة. وبدا واضحًا أنه وضع رأسه في مغطس الأحـــلام المطـــاط، فمرة يبصر أنه صار في الجنة، بين الملائكة وهـــو ببذلتـــه العسكرية وبسطاره النظيف الملمع. ومرة ينادي في ذهـــول: هات السيف يا مرهم.

لا أحد يعرف كيف غرس في رأســـه ســـكين اللحـــم، حينما، في أحد الأيام، حمل إلى أقرب مشفى حكومي وهـــو في الرمق الأخير. وفي مكان الجرح، بعد فترة طويلة، نبتت شعرات بيضاء يعجز عن تصفيفها المشط. لم يصـــدق أنهـــا تنبت من رأسه في البدء. قال إنما هي خيوط تقطيب الجرح المصنوعة من النايلون تركوها عمدًا في رأسه. عندما اقتنـــع أنها شعرت حقيقية طلعت مكان السكين، من ملتقـــى الغـــرز بالضبط، أحس أمام المرآة أن الأطباء ضحكوا عليه وألصقوا في رأسه رقعة من الجلد ليست له. وفكر أنهم ربما أخـــذوها من رأس امرأة عجوز متوفاة على وجه السرعة لإنقاذه. ندم بين جمع من أصدقائه، وكان منهم صديقه خلف، على العودة إلى الوعي بقطعة من جلدة رأس دخيلة عليه. ومر وقت وهو

يخجل من كشف رأسه أمام أحد معارفه أو أصدقائه الآخرين لئلا يسأله أحدهم عن الشعرات البيض. وفي تلك الفترة تعرف إلى الكثير من الحلاقين الذين كانوا كلما رأوه عرفوا أول عمل يقومون به في رأسه. وفكر في رفع دعوى على الطبيب الذي أخرج من رأسه السكين، لتعويضه عن الضرر النفسي الذي لحق به. ولما استقر رأيه على ذلك، نصحه صديقه خلف ألا يورط نفسه مع المشفى وإدارته لأنها ملك الدولة. تلك الكلمة "ملك للدولة" جعلته يرضى بلطخة الشعر البيضاء ويعيش حياته. ثم تزوج من سجود، وهو يظن أنه سيجد عملاً يكفل له دخلاً ثابتًا يساعده على الوقوف متماسكًا أمام إغداقها عليه في العطاء.

لم يحتمل البقاء في مهنته الجديدة كدلال في سوق الأغنام، عندما اكتفى الباعة بلقب " أبو غرة" بديلاً عن اسمه، فانتقل إلى مصنع صغير للأخشاب وعمل فيه أمين مستودع، ثم مشرفًا على العمال بالأجر اليومي. ومرت سنة، وكل شيء على ما يرام. عند ذاك كلفه صاحب المصنع بإدارة المصنع بالكامل باستثناء تدقيق الحسابات والصرف. بعد حرب الخليج الثانية وجد نفسه قادرًا على الدخول في شراكة

بنسبة خمسين بالمائة مع صاحب المصنع الذي كان تعـــرض لهزة قوية بسبب رحيل العمال اليمنيين المفـــاجئ، ونقـــص العمالة المدربة في البلد آنذاك. وهكذا بعد سنوات صار رجل أعمال وتوسعت علاقاته التجارية، وكان ذلك بعد مرور اثني عشر عامًا على زواجه من سجود.

ضحك الضابط من أداء مطلق الذي لو كان في مسرح لحق له أن يحوز رضا الجمهور حسب ظنه. حدث ذلك فـــي الأثناء التي بدأ حاقل يقطع فيها الممر الطويل إلى المكتـــب. ففي إشارة إلى أحد ضباط الصف، انتقلت المهمة إلى إحضار حاقل لمكتب الضابط ، بدلاً من حجزه، فجيء به بسرعة كما لو أن ثمة إخلاء للمبنى قرر فورًا:

- نعم، اعرفه، هذا ولدي حاقل.
- اجلس يا حاقل هنا. وأشار الضابط إلى مقعد عـــن يمينه قبالة مطلق.
- ما مشكلته يا حضرة الضابط، لماذا جاء ولدي إلى هنا؟
- المشكلة بسيطة إذا أردنا التحدث عن علاقته بتلك الرسوم التي انتشرت في الجدران فـــي الأشـــهر

الماضية. ابنك ليس هناك مشاكل عليه سوى في أمرين، الأمر الأول كان أهل الحي قد قدموا ضده شكوى بسبب إزعاجه لهم بالمفرقعات، وهذا حدث منذ عام تقريبًا، وأذكر أن المسألة حلت وديًّا وإن لم تحل بشكل جذري حتى الآن. الأمر الثاني هو وجود اسمه متكررًا تحت رسوم طالما حيرتنا المادة التي رسمت بها، وكنا نريد أن نعرف منه ما هي علاقته بتلك الرسوم الغامضة ومن هو صاحبها إن كان يعرف ذلك؟

هذا هو الضابط إذًا. قال حافل في سره، وكان تذكر قصة الاحتجاز الأولى وكيف قضى في الغرفة أكثر من ساعتين بانتظاره، دون أن يظهر للعيان. اليوم، هذا المساء، ها هو يظهر له بعد عام من الحادثة الأولى. تصور أنه كما تخيله في الماضي، أو كما يتخيله في كل حادثة تثير احتمالات جره إلى مكتبه، كبير الجسم، عظيم الهيئة يعلق عن يمينه الكرباج وعن يساره الكلبشة وفي خدمته دزينة من الجنود المدججين بالعصي الكهربائية. لكنه، هنا رآه رجلاً آخر عليه سيماء التقدم في السن والهدوء ومشاعر الأب

الصالح. بل إنه أهتز له عندما برفق قال له اجلس هنا وفي فمه طيف ابتسامة. ثم عندما تكلم بتلك الكلمات بصوت خفيض، أحس أنه فتح النافذة التي وراءه، وسمح للهواء بالدخول، فتجدد الأوكسجين، وامتلأت الغرفة بعائلة كبيرة تعج قلوبها بالفرح. وتساءل لماذا أخذني إلى الرسم رجال غلاظ بوجوه مشققة من شدة التجهم والإحساس بالنكد؟!. لو سأله الضابط الآن: هل تريد أن تشرب كوب شاي؟! لكان جوابه نعم بلا تردد. وأغلب الظن أنه سيسمح له بأن يبتسم أمامه على هذا المقعد. وأن يجلس واضعًا رجلاً على رجل. وبصورة تدعو إلى الإعجاب به، سوف يراه الضابط يميل جذعه بطريقة شبابية إلى الوراء، ولا يزجره على تصرفه، وقد تحين منه التفاتة، فيلمح قدمي حافل متزحزحتين عن حذائه القصيمية بحيث تكون وضعية اللبس كالتالي: نصف القدم في الحذاء والنصف الآخر خارجها، لكنه سيظل هادئًا، كما هو الآن خلف المنضدة.

لماذا أبي عنده؟! سأل حافل نفسه بقلق ظاهر. سؤال آخر خطر على باله ورأى أن لا بد من معرفة الإجابة عليه: لماذا قال أبوه، نعم أعرفه، هذا ولدي حافل؟!.. يقول ذلك

الكلام أمام الضابط في حين أن الشخص المعني بها هو حافل بالذات! هذا هو أبوه يجلس قبالته على المقعد، وفي وجهه إمارات الدهشة من وجود ابنه في السجن كما يردد. ولا حظ أن على الطاولة الصغيرة التي عن يمينه، كوب شاي بالنعناع لم يزل نصفه مملوءًا، وله عروة مطعمة بحلقتين ذهبيتين في أعلاها وأسفلها. لاحظ حافل، أن الضابط يتوجه إلى أبيه ليس بالكلام فحسب وإنما بالاهتمام أيضًا، وبالصوت الودي، وبالعينين الأليفتين، وبتشكيلة من الابتسامات المفعمة بالارتياح. وكان يبدو عليه أنه لم يكن ينتظر مشكلة لحلها، أو قضية للتحقيق فيها، بل بدا عليه كما لو أنه يستقبل ضيفًا، ليقدم له كوب شاي بالنعناع، ويتحدث معه عن مفرقعات صارت غبارًا منذ عام، وعن رسم في جدار بيته يصرون على أن فاعلها، هذا بالتحديد، ما يريد حافل أن يصل إليه، هل كان صديقًا لأبيه منذ الحادثة الأولى، لكن أباه كان يكتم أمر هذه الصداقة منذ ذلك الوقت؟!. وأصابت عقله شعرة خبال حيال أبيه وصداقاته الغريبة. ففي الوقت الذي يتسرب فيه أبوه إلى عزبة العم قائد ليجرد معه كمشة صغيرة من حسابات مالية في بضاعة ممنوعة بالقانون، يراه حافل يجلس

في مكتب الضابط الذي يتولى التحقيق في القضية نفسـها، ويحتسي عنده كوبًا من الشاي!!. وفي الوقت الذي يؤمن فيه أبوه أن من المعيب الذهاب إلى مراكز الشرطة، يجده داخل أحد فروعها، ويسأل الضابط فيها: لماذا جاء ولدي إلى هنا؟.

- رسم ماذا يا أبا إبراهيم حفظك الله؟ هل وجدتم ولدي على الجدران يرسم شيئًا ؟؟.
- في الحقيقة، لم نره يفعل ذلك، وإلا لكان وضعه الآن مختلف. لكن هناك مشتبه به ، لا نعرفه حتى هـذا الوقت يرسم الأشخاص ويعبث في الجدران، وكـان نريد تعاونه في هذا الجانب لا غير. صحيح، أوقفنا حافل لدينا حتى هذا الوقت، لكن لا يعني ذلك أنـه مذنب قبل استكمال التحقيق.
- خذوا لحمه وأعطوني عظامه إذا كان بالفعل متورطًا في تلك الأشياء التي تتحدث عنها. لن ألومك علـى فعل ما تراه مناسبًا لإظهـار الحقيقـة مـن أجـل المصلحة العامة.
- العملية لن تبقى وقتًا طويلاً مستغلقة على الفهم. ثق من ذلك تمامًا.

- لقد أخبرته ونصحته بالابتعاد عن الشباب "الخاسعين" وقلت له لن يفيدوك بشيء. ابحث عن عمـــل، فـــي سوق الخضرة، في الـــورش الصـــناعية، فالعمـــل الشريف لا يعيب الشخص أبدًا.
- أنت صديق عزيز أخي مطلق، ويمكـــن لولـــدك أن يذهب معك الآن لو أخبرنا عن ذلك الشخص الـــذي يرسم على جدران المدينة أشـــكالاً لا تليـــق بهـــا. وللعلم، نحن ليس قصدنا أن ننزل به العقاب بقدر ما نريد أن يعرف أن هذا العبث غيـــر مقبـــول علـــى الإطلاق.
- نعم، غير مقبول على الإطلاق. أوافقك بشدة علـــى ذلك.
- وهو لن يهرب بعيدًا عن قبضة الجهات المختصـــة. سنلاحقه في كل مكان، ونكتشف أين يختبـــئ فـــي القريب العاجل.
- نعم، لن يهرب بعيدًا مهما كانت قدرته على الهرب.
- يظن بعض الأولاد الأشقياء أنهـــم قـــادرون علـــى إرباكنا باللغط والتهويل واقتـــراف الأعمـــال غيـــر

المسئولة، وهم في الحقيقية واهمون. إنهم يجهلـــون تمامًا أننا يمكن أن نراقبهم من بعيد ونرصـــد كـــل حركاتهم وسكناتهم دون أن يحسوا بوجودنا.

- هل سمعت يا ولد، كلام سعادته. إنهـــم يعرفـــونكم تمامًا أنت ومن يمشي معـــك مـــن عيـــال الحـــارة البطالين.
- والآن، أخي مطلق، يمكنك أن تأخذه معك إن أردت ذلك.
- لعله يثمن هذا الموقف النبيل منكم ويرتدع، ويعـــود إلى صوابه.
- لكنه لم يتحدث حتى الآن عن ذلك المخرب. نريد أن نعرفه ونعرف أين يسكن؟!
- هل سمعت؟!. يريد صاحب السعادة أن يعرف مـــن ذلك المخرب الذي يشوه جـــدران المنـــازل بتلـــك الصور القبيحة؟!.
- هذا إذا أراد الخروج هذا المساء وبشكل استثنائي.
- لا بد أنه، يا ســـعادة الضـــابط، يشـــعر بالامتنـــان لسعادتكم على هذه البادرة الإنسانية العظيمة، وأقـــل

ما يمكن أن يفعله للتعبير عن امتنانه، هو أن يتحدث بالحقيقة لك عن ذلك المخرب. نعم، هذا إذا أراد الخروج هذا المساء إلى أمه.

- عندها فقط، سنطوي ملفه بشكل نهائي ولن تبقى عليه أية ملاحظة سلوكية، قد تعيق توظيفه في المستقبل.

- شكرًا لك يا أبا إبراهيم، يا صديقي الوفي. أنا أعرف أنك فعلت ذلك من أجلي. من أجل صداقتنا الطويلة. كم أنت شهم!

- إنني منصت له، فليتكلم.

- أننا منصتان لك. فتكلم. تكلم يا حافل.

إذًا، هما صديقان منذ وقت طويل. فكر حافل. لكن على افتراض أن ذلك كان صحيحًا، فقد بدا له أن صداقتهما من ذلك النوع الذي ترجع فيه كفة على أختها طوال الوقت، وتذكر أن علاقة أبيه مع العم قائد لا تخرج عن نفس النمط من العلاقة التي يشهدها الآن بين أبيه وصديقه الضابط. الفرق أن العلاقة التي يشهدها الآن بين أبيه وصديقه الضابط. الفرق أن الضابط هنا يقول كلمته وينتظر من أبيه

أن يوافقه عليها أو يرددها خلفه، أما هناك فالكلمة بالطبع لأبيه، لكن لماذا يذهب بعيدًا؟. أليست لأبيه وحده، سلطة الكلام في البيت أيضًا؟. ولاحظ من كلام والده أنه قال كلمته. خذوا ولدي واتركوني، من غير الضروري في هذا الشأن ذكر الأسباب التي تدعو أبًا للتبرؤ من ابنه بهذه الطريقة أمام ضابط. فالمسألة بالنسبة للأب واضحة. المصلحة العامة. إنه يعني هذه الكلمة وهو يقولها بصوت بالغ المتانة والصفاء، إلى درجة أنه عندما كررها مرتين، حدثت له حالة انتشاء وكأنه مارس لتوه العادة السرية. أما حافل، فلم يكن وجلاً، ولا مضطرب القلب في تلك اللحظة التي وقف فيها تفكيره على تصور أنه ليس أكثر من تمثيلية هزلية هذا الذي يحدث أمامه. واقتنع أنهما معًا، أو منفردين، لا بد أن توصلا إلى حالة من اليقين بأنه سيعترف أخيرًا بتلك الأفعال القبيحة المرسومة على الجدران. إن نظرة واحدة من عينيه لن تخطئ تلك الهمسات المحمومة في تعابير وجهيهما وهي تقول له: هيا قلها، لقد طال انتظارنا يا فتى. وبمجرد أن يقول الكلمة الأولى، يقفزان من مكانيهما ويصيحان انتشاء: أرأيت؟.. كنا نعرف أنك ستؤثر السلامة وتخبرنا بالحقيقة:

- ليس أنا.
- ماذا تعني بقولك ليس أنا؟
- لست الشخص الذي رسم على جدار منزلك. إنكم تقبضون على الشخص الخطأ، فيما الفاعل الحقيقي يمرح في مكان ما حرًا طليق اليدين.
- يمرح في مكان ما؟. أين؟
- يا حضرة الضابط، هل تظن أنني أعرف منكم بالأمكنة وخبايا البلد؟!
- أصدقاوك كثيرون ويمكنك أن تعرف منهم أشياء مفيدة عنه. اسمه مثلاً. ملامح وجهه بالصدفة. كلمة قالها وهو يعبر دون أن يلقي لها شأنًا. قبل لي: كم شخصًا يجتمع في أغلب الأحيان بحوش المساكين؟
- فيما يتعلق بمجموعاتنا، فهي من خمسة إلى عشرة أشخاص.
- وكلهم تعرفهم؟
- نعم.
- وتثق فيهم؟!
- كلهم أصدقائي، حتى أن منهم ــــــ

- مالك سكت؟ هل كنت تريد أن تقول اسمًا معينًا؟.

من هو؟

- ولدك، سراج معنا أيضًا

- هل قلت ولدي سراج؟!!.

- نعم، ولدك سراج يا حضرة الضـــ..

- (قال الأب مقاطعًا): اخرس يا ولد يا وقح.. كيـف تجرؤ على هذا الكلام التافه أمام سـعادة الضـابط. ولده سراج أعرفه جيدًا، وهو من أكثر شباب البلـد حفاظًا على الأخلاق العالية والسلوك الحسن. عـذرًا يا أبا إبراهيم على زلة اللسان هذه. إنه ولد طـائش كما تعرف ويقول أحيانًا كلامًا خطيرًا للغاية.

- مهلاً، يا مطلق.. دعني أستوضح منه الخبر. ما بـه سراج؟..

- يلعب معنا أحيانًا في حوش المسـاكين وخصوصـًا عندما نتقاذف المفرقعات المشتعلة. إنه هـو الـذي ابتكر هذه اللعبة حيـث ننقسـم إلـى مجمـوعتين. مجموعة الأشرار وكان هـو يقودهـا، ومجموعـة

الأخبار وأقودها أنا. وكنا ننتظر حتى تغرب الشمس لنبدأ المعركة.

- هل تعرف شكل سراج هذا الذي تقول أنه ولدي؟!
- بدين، أبيض البشرة، يناديه بعضنا يا حلو.. يا قمر.
- (مرة أخرى تدخل الأب وقال مغضبًا): حافل!! لعنة الله عليك يا ولد. لو لم تكن في مكتب سعادته لأوجعتك ضربًا. كيف تقول هذا الكلام البذيء عن ابن سعادته المؤدب المحترم؟!
- اصمت يا مطلق لبعض الوقت. أنا من يتكلم هنا ويسأل من فضلك. هل هذا مفهوم؟!
- (أجاب الأب وقد بدا عليه الارتباك): أعتذر يا حضرة الضابط. تفضل تكلم.
- قل لي يا حافل. وأخبرني الحقيقة.
- عن ماذا؟
- عن ولدي سراج؟
- ما به؟
- هل هو يدخن؟!
- نعم.

- وماذا بعد؟!
- وهو صديقي.
- عرفت ذلك. لكن ما هي الأشياء التي يعملها معكم.
- يقود دراجة نارية. يضع سلسلة ذهبية حول رقبتــه، ولشعره يفضــل قصــة المــارينز. يحــب اللعــب بالمفرقعات وكرة القدم، لكنه طيب.
- حسنًا. هل أخبرت المحققين عن هذه الأمور.
- ما كنت لأفعل ذلك. إنه صديقي وبيننا أسرار.
- من هو الشخص الذي بينكم يجيد الرسم وتراه دائمًا يمارس على الجدران هوايته؟
- معظمنا يرسم القلوب المطعونة بالسهام. مرسل فقط، يرسم رأس حمار.
- سراج، ماذا يرسم.
- القلب النازف.
- ماذا تعني بقولك القالب النازف؟!
- يرسم قلبًا يخترقه سهم.
- وماذا يعني هذا الرسم؟! هل تعرف؟
- يعني أن الذي يرسمه يحب.

- وأنت، ما هو الرسم الذي تفضل؟
- رسم البطيخة.
- وما هي الميزة في رسم البطيخة؟ أي شخص يمكن أن يرسم بطيخة.
- ربما لأنني أحب البطيخ جدًا، تعـودت أن أرسـمه باستمرار.
- ألا يوجد بينكم من يرسم آدميين؟. أو علـى الأقـل يرسم رءوسًا بشرية، أو أجزاء هيا كل عظيمة؟!
- الذي يرسم منا، لم أره يمارس هذا النوع من الرسم.
- هل تريد مني أن أصدقك؟!

(٨)

محظيته الصموت، قصم ظهرها فسمح لها أنة خافتة. لم تقاومه. انكسرت سريعًا بين يديه واضطجعت على الأرض ليفعل بها ما يشاء. جسمها الناحل، صلبًا يبدو في الظاهر. كتلته المتقشفة تسطع بالخواء من بعيد. في العمق، التوهان محاطًا بنوره الخاطف، يدعوا إلى الدخول من يقترب. أقل ما يمكن حدوثه عند الملامسة الأولى هو أن الأنامل تطلب المزيد. ومعها تسحب الجسد كله، بقية التوغلات الأعمق في الباطن الناعم، الرقيق، المفعم بدفء الاكتشاف والمراودة. في نفسه، تأمل حافل حديقة شاربة تنعم بعزلتها الحميمة، وتنمو على سجيتها، متخذة من حافة الشفة مطلة على رجولة في حالة كمون. وضوح لا حد له يفلق يقينه بقدرته على الكتمان، ويدفعه إلى اتخاذ احتياطات قوية لتحاشي الوقوع في مصائد الرغبة والشوق كلما همس لداخله: يا للأمور التي تجري!. ذات صباح استيقظ، فرأى ثيابه الداخلية شهادة أخرى تعلن الحدث بصورة صارخة. تفوه الجسد بكلمته في احتفالية خاصة، وكان هو وقتها نائمًا،

الأمر الذي فوت عليه فرصة المشاركة. وصل متأخرًا فلم يجد سوى البلل. غير أن الآثار ما تزال تؤكد أن بالإمكان الخروج في نزهة جديدة في وقت آخر وليكن مستعدًا من الآن. وهاهو التوهان المضيء في جسمها الناحل يطلبه فيلبي. يصف الحالة، وهو ينزلق في الهمهمة والتلاشي، بالاستسلام لخليط من النار والعسل يخترق البدن من الأسفل إلى الأعلى. يقترب منها، فترتجف تحت أصابعه. يتساقط منها ذرور النار. تتفتح في أنفه رائحة جسدها المتعطش للومضة التي من شأنها أن تمس الشغاف، وتحرق البدن. حركة صدره، تعلمه أن القلب زاد نشاطه بصورة دراماتيكية بعد أن رفعها إليه، وثنى جذعها إلى الأسفل. ذلك ألذ، همس وهو يخرج من جيبه علبة الكبريت ليسكب الرعشة المطلوبة على جسد المفرقعة المنكسر من المنتصف، والملتوي حول مسحوق البارود المكوم على اللوح. بمجرد أن يلتقي عود الثقاب المشتعل وكومة البارود، يكون جسده قد وصل ذروة التوق لتفوهاته الحلوة، فينفجر الاثنان معًا.

ذات مرة، اشتعل لوحده في باحة المدرسة لأن وقت الفسحة انتهى قبل أن يشعل المفرقعة. خذله عود الثقاب

الوحيد الذي كان معه، في اللحظة الحرجة. انطفأ العود فجأة، ومضى هو في طريقه مرغمًا حتى النهاية. ضـــاحكًا، شـــد مسلطاً من يده، وفي همس اللصوص، أخبره أنه يفضلها مع مفرقعة صغيرة في مكان خاص. دجج أنفاسه مسلط بضحكة طويلة ثم قال: أنا أفضلها وقت الاختبارات الشهرية. كيــف ذاك؟!. سأله حافل ظنًا منه أن يسخر منه. أجاب مسلط وهو يحاذر أن يسمعه البقية: كما تعرف، في كل اختبـــار هنـــاك أسئلة سهلة وأسئلة صعبة. الأسئلة الصعبة أتجاوزها عمــدًا للانتهاء من الأخرى السهلة في وقت مبكر. لكن الوقت يمر وأنا أفكر في الحل. أتوتر واضطرب وأحاول التركيز. لكــن لا فائدة. وعندما يضرب المعلم بيده على ســطح منضــدته للإسراع في حل الأسئلة، أتوتر أكثر وترتعش حالتي الخاصة بشكل لا أفهمه لكنه لذيذ ومدوخ بعض الشيء. عندئذ، أمــد رجلي إلى الأمام، وألصق إحداهما بـــالأخرى بقــوة. وفـــي الوقت الذي يبدأ المعلم فيه بنزع الأوراق من الطلبة، أكــون قد شددت أوتار رجلي للغاية دون أن أهتدي لحلول الأسئلة. وما أن يصلني وينتزع ورقتي من تحت يدي، حتى أكون قد انتهيت وبللت نفسي. ضحك حافل ثم عقب: أشــياء غريبــة

تحدث معنا. أليس كذلك؟ أحيانًا، أتساءل ما هو الشيء الجيد في البارود ليمنحني هذه الخصوصية؟!. لكني أنسى السؤال حالما أدخل في التجربة مدفوعًا بما يشبه الحمى في جسدي.

وقال: المرة الأولى، حدثت عندما رأيت أخت شاكر تتهادى في الشارع وحدها. الله، ما أجمل تلك المرأة. كأنها كانت نجمة مصرية تمثل في فيلم على رصيف ذلك الشارع بمشيتها الحلوة، واهتزاز لحمها الريان الذي توجهه الريح ليمعن في الإغواء والتسبب في إرباك قلوب المتقين في الشارع. ذهبت من فوري، إلى الحوش واقتعدت مكانًا ظليلاً أتخيلها في تلك المشية. خطوة خطوة مشيت معها، وغازلتها، ولامستها، إلى أن وجدت نفسي أقترب من حرق علبة الكبريت على قدميها، لأثبت لها أنها أقوى من كل ما لدي من مفرقعات بل وأقوى من كل المفرقعات الموجودة في البلدة. لم أكن أعرف أنني كسرت مفرقعة بيدي، إلا حين شممت رائحة البارود. وجدته قد انتثر بعضه في الأرض وتبدد بعضه الآخر على أطراف أصابعي. ووجدتني بالنار ألاحق المسحوق الذي سقط على الرمل لأحرقه بقعة، بقعة، بينما كانت تلاحقني نار أخرى قادمة من تلك المرأة حتى تمكنت

مني وخارت قواي في مكاني، ومن تلك الخلـــوة، صـــرت ألاطف الفرص وأصطفي أنسبها لأكتشف المزيد. ارتبطـــت يقظة النار في جسدي بالنار التي رأيتها تومض فـــي جســـد أخت شاكر وما المفرقعة إلا وسيلة مساعدة بحتة. سمعت أن البشر جزء من غبار النجوم الذي قبل ملايين الســـنين مـــلأ الكون وما زال ينشط في أرجاء السموات. ولئن صح ذلـــك، فلا أستبعد أن تفكر تلك المرأة بنفس الطريقة وربمـــا تقـــوم بنفس العمل بغض النظر عن ارتباطها بشخص آخر. ألـــيس في النجوم شيء من عناصر البارود؟!. إذاً، أنا وهـــي فينـــا شيء من نفس المادة، هذه المادة التي أكلت أصابعي وكثفت وميضها الحارق في تفكيري.

في أحدى المرات، أقدم على تشريح مفرقعة صـــغيرة كانت في يده. بدأ باللفة العلوية، بعد أن خرب بالماء المـــادة اللاصقة التي تحمي طرفها من الانسلاخ والتفكك. تمنعـــت، وقاومت فضوله، لكنه اقترب منها أكثر، وتشـــمم رائحتهـــا، ولاطف كتلتها المتوترة بأنامل حذرة. حك بآلة رهيفة الحـــد بطن اللفة الملتصقة بظهر اللفة التـــي تليهـــا محـــاولاً قـــدر الإمكان تنعيم درجة الحك، وتطهيره مـــن غريـــزة التشـــفي

والامتهان. عندما بدأ، كان يريد أن يعرف كـــم لفـــه يلـــزم لتكوين جسد مفرقعة؟!. بيد أنه، أحس لاحقًا، بأنه اتبع طريقة جامدة للتعرف على اللفافة الورقية من قرب. من السذاجة أن تكون محصلة التشريح معرفة عدد اللفات فحسب. ما الفائدة المنتظرة من الوصول إلى هكذا نتيجة؟! لكن لو أنــــه طـــوع قوته من أجل أن يعرف سر تعلقه الغريب بالمفرقعات مثلاً، لأحس أن جهده لن يضيع هباء وهو يخترق طبقاتها الورقية بغض النظر عن النتيجة. أقر في البدء، أن الورق من النوع الرديء، حيث لاحظ أنه يتمزق إلى أوصال صـــغيرة أثنــــاء عملية السلخ . سر من أسرار اللفافة على الأرجـــح. ربمـــا لإعاقة أية محاولة للاكتشاف، توجج المفرقعة الملل في النفس بهذه الطريقة لحملها على صرف النظر عن الفكرة وإيقـــاف البحث. هناك في الحياة بعض الأشياء المشابهة، مثل ثمـــار القورو المرة التي تجرح اللسان بطعمها الحنظلـــي وتظـــل تغدق عليه مرارتها مع كل مضغة، بينما يكمن العســـل فـــي قلبها الصغير. ليست ثمرة القورو كالمفرقعة. كما أن البارود هنا ليس كالعسل غير أنه في نهاية المطـــاف رحيـــق مـــن الطبيعة يقود إلى النار كما يؤدي رحيق الزهور إلى اللقـــاح

والعسل. النار تشوي ، وتحرق، والعسل يشفي، ويداوي الحروق. أما النار والعسل معًا، فشيء آخر مختلف لا يظهر إلا وقت العمل.

كل لفة تسلخ من المفرقعة، تحمل إيحاءات متكررة عن جسد ناعم يتهوى في يوم قائظ. جسد يقول أن على الثياب أن تخرج مرغمة ليحصل هو على نزهته في المكان الذي يريد وبالكيفية التي يبتغي. لكن الورق الذي لبث طويلاً في المصنع، ثم لف حول حفنة بارود، وقذف به أخيرًا في وجه العالم ليقوم بفرقعته الوحيدة، تجلت ضآلته في اللفة الأخيرة. في الطبقة المحيطة بالمسحوق الضحل. من خلال تلك الطبقة، ظهرت المفرقعة بضعفها الطبيعي، وقبحها الشكلي المرعب. بدت للأذن مجردة من الصوت المدوي الذي كانت لا تني تتبجح به في كل اشتعال، وتكشفت للعين فاقدة لمظهر الكتلة الخطرة التي يحاذر اللاهون من الإمساك بها أثناء الفرقعة. مجرد بقايا لدمية صغيرة ألقى بها الأولاد تحت العجلات بهدف توسيخ فستانها الزهري فحسب. المسحوب الرمادي، الذي كان لا يمانع في حرق الأصابع، وإشعال النيران في الثياب، خرج عليه من تحت اللفة مرتعشًا،

متروع الأبهة، بلا ظهر قوي يسنده إلى باحة يمارس فيها حضوره الخشن، وصيحاته الحادة. هل هذا كل ما في الأمر؟!. تساءل حافل وقد شعر بحزن عميق لأن النتيجة بدت بهذا الشكل. كأن الذي بين يديه ليس مفرقعة صغيرة، وإنما شيئًا آخر ليس غير حافل نفسه. بل هاهو يحك اللفة الداخلية لحشوة الذات ويحفر فيما ظنه مستعصيًا على الكشف والاختراق. يحفر في الجوهر المخبوء وراء طيات من المراوغة اليومية في نظراته إلى نفسه. من شعوره الزائف بقوته في الباحات وقت اللعب، وبكونه إنسانًا غير عادي كما كان يردد أصدقاؤه، وكما رضي هو بذلك عن شخصه. من إحساسه الخادع بأنه كلما أطلق صواريخه في الفضاء، فإنه يزداد صلابة في عيون من حوله، وأن قامته تطول إلى الحد الذي يشعر فيه أن رأسه يدنو من النجوم ويتوهج مثلها. ترى، هل كان بظهوره في تلك الصورة يحلم بأن يكون شخصًا آخر أقوى منه في الواقع، وأكبر منه تحملاً لمتاعب الحياة ومضايقات الشرطة، أم كان فحسب يريد التخفي وراء عاصفة هوجاء من الألعاب النارية هربًا من يقينٍ ما بتفاهة

الحياة التي يعيش وحقارة الدور الذي وجد نفسه فيــه رغــم أنفه؟!

لا يشك فـــي أن ثمـــة روح للبـــارود عاشـــت معــه واستوطنت رغباته كل الوقت الذي مضى، وهـــا هـــي الآن تريد أن تشعل فيه النار وتحرقه.. ولكن إلـــى أي حـــد؟!.. يستطيع أن يلتقط من المفرقعة، أنها كانت بالصدفة المقـــراب الذي وجهه نحو نفسه فاكتشف كم كان مراوغًا فـــي النظـــر إليها بتمعن طوال الفترة الماضية. وراء لفة من الأفكار التي أرادها لخلق شخصية فائرة وصاخبة في اللهو، ألفـــى نفســـه شخصًا آخر لا يمت له بصلة. بزعمه أنه الأب المرتضـــى من الشلة، اقترب من خلق شخصية مطاعـــة، تنتظـــر مـــن الجميع الانقياد لأوامرها بلا تردد. والغريب أن الشلة تطيعه وتنفذ أوامره بشكل شبه أعمى ولم يحدث أن انتفضت عليـــه ورفضت أبوته ولا لمرة واحدة طـــوال الفتـــرة الماضـــية. وبزعمه أنه الأكبر سنًا، حدد للكل تجاربه وخبراته ووضـــع في القمة تجاربه هو وخبراته مدعيًا أن ذلك من ضـــرورات الشخصية غير القابلة للاستبدال لكونهـــا الشخصـــية التـــي نضجت أولاً، والتي مبكرًا دقت أوتادها فـــي عمـــق الحيـــاة

وجوهر النظر إلى الأشياء. وبزعمه أنه صار الشخص الذي اتفق الجميع فيما بعد على أن به شيء من عادة الطبيعة في خرقها للمألوف، ابتكر لنفسه مرأى الإنسان الملهم الذي تهرع إليه الأنظار طلبًا لحل المعضلات وإنارة الرؤى بالنظرات السديدة. وضع لنفسه نداءً خاصًا يتكون ليس من كلمات مثل يا مولانا، أو يا سيدنا، وإنما من مجرد أن تكون هناك معضلة ويشرع أحدهم في حملها إليه طلبًا للبت فيها بالقول الصائب. كان يستثني بالطبع حالات توقيفه لدى الشرطة، حيث كان يعتبرها حالات ضعف عابرة لا تؤثر في وضعه ومكانته وتفرد شخصيته. ووراء لفة من الأصدقاء الذين تحلقوا حوله، ألفى نفسه منضغطًا داخل حلقة ضيقة من الأصوات والوجوه، ما جعله خاويًا تمامًا من صوت خاص ومميز ينصت إليه باهتمام شديد وتعلق روحي كبير. لا وجود لحب فتاة معينة في حياته. قلبه باهت من الداخل وصامت كآنية نحاسية مركونة في مستودع معتم. وبهذا القلب الباهت عاش ما مضى من حياة على طريق جافة لها تحت أقدامه أصوات ألواح تحترق.

والتقط من المفرقعة أيضًا، أنه في الوقت الذي يقـول كل شيء كلمته، أو خلاصة انفعالاته، أو جوهر رؤيته فيمـا حوله، أو يفصح عن معناه بشكل ظاهر ومتجل، أو يظهـر لمعانه الداخلي دلالة على نضجه واكتمالـه أو دلالـة علـى بلوغه حدًا لا مزيد عليه، لا يجد حاقل أنه وصل إلى شـيء يمكن أن يقول عنه أنه الشيء الذي، من خـلال شخصـيته الملتبسة تلك، أراد تحقيقه ليكون معبرًا عنه ودالاً عليه، الآن فقط، يستطيع أن يقول بأن تكوينه الداخلي لا يثير لديـه أي إحساس بأنه واسع أو مضيء. وإذ يلحظ ذلك ، يزول عنـه تفخيمه المبالغ فيه لنظرته التي كانت تمنحه شعورًا بالعظمة والأبهة كلما سلطها على نفسه ليعلن رضاه عنها ولتمجيـدها تاليًا. كان فحسب يتواطأ مع نظرة الشخصية المختلقة كشيء له سلطة وقوة تأثير كبيرة على وعيه، مبتعدًا بذلك عن ضوء الذات الذي كانت تحجبه الأوهام. روح البـارود التـي مـا انفكت تغدق عليه توهانها المضيء، وتملأ أحاسيسـه ألقًـا وتجليات في الفترة الماضية، ها هي تنقلب عليه لتكون أكثر الأعماق بعدًا في داخله لحرقه وتقويض يقينه، وتساءل، هـل تفسر كل هذه التأملات سر تعلقه الغريب بالمفرقعات؟! بدون

أن يدري، هل كان يندفع في البدء إلى إحراق مفرقعة ليرتسم ضجيجها في ضجيجه الداخلي، وبالتالي ليلتمع في ضـــوئها الخاطف كم من الحقائق التي لا ريب تؤكد وجه الشبه بينـــه وبينها؟!

بمعنى ما، أحس، في تلك اللحظة، بعفته تنتهك علـــى يده، ورأى نفسه، متوارية خالف مفرقعـــة وجملـــة أفكـــار غريبة، تتعرى له، ساحبة جسده نحو إغواء من نوع مختلف لا علاقة له بالخارج. وصل السلخ إلى الحد الحـــرج. الحـــد الذي شعر فيه بحرارة الباطن تلفحه ليقف ويختبر قدرته على التقدم واكتشاف المزيد. كان يريد أن يعرف إلـــى أي مـــدى يستطيع أن يصدق أنه، بالفعل وليس بالتوهم، اخترق عذرية شخصيته واقتحم ذاته هو وليس مجرد الوقوف على أنقـــاض مفرقعة.

(٩)

مرات لا تحصى، حاول أن يرسم الكرسي ذا العجلتين على ورق مقوى، لكنه ما أن يبدأ في الرسم ويفرغ من العجلات وظهر الكرسي حتى يرفع يده ولا يكمل. كان يجد صعوبة كبيرة في رسم الكرسي بدون أن تحضر أمه بوجهها الشاحب وجسمها الثاوي في المشهد. ودائمًا ما تكون المحصلة أن يمتلئ الورق بعجلات متجاورة لا تخص كراسي بعينها، وتوصيلات معدنية متقاطعة لا تدل على شيء محدد. على النقيض من ذلك، كان يرسم ببراعة أحذية الصندل، والمشط الخشبي، ومشابك الثوب، وبقية أشياء أمه الصغيرة، وفي إحدى المرات، اطلعت أمه على لوحة كان منهمكًا في إضفاء اللمسات الأخيرة عليها، فرأته يرسم خاتمًا واسع الحلقة. غير أنه، أحيانًا، يشطح بعيدًا خياله، فيرسم خوخًا متعفنًا في سلة فواكه، أو تفاحًا سوي بأرض المطبخ. وكانت بصمت تتابع ما يرسم دون أن تتدخل أو تعلق. وهي لاحظت أن رغبته في الرسم، بدأت أثناء وقوفه في باحة أيام مليئة بالفراغ بعد تخرجه من الثانوية والبقاء بلا عمل.

لم يجد، في المعهد المهني، مكانًا للتخصص الذي يريد حيث كان مملوءًا عن آخره، فاضطر إلى الانتظار. في البيت يتحدث ويرسم وينام، وفي الخارج لا يوجد عمل سوى التنفيس عن ضيقه وتوتره بلقاء الأصدقاء وإشعال المفرقعات. شيء واحد كان يبقيه مستيقظًا معظم الوقت. أن يطرق عنصر من الشرطة باب الدار. الاستدعاء المباغت كان يعطيه طمأنينة خاصة. يحدث ذلك كلما كان على الشرطة أن تتأكد من علاقته برسم جديد ظهر في أحد الجدران فجأة. صار الاستدعاء يبهجه لأنه يدل على أن الرسام موجودًا بالمدينة ما يزال. وكان ذلك يمنحه وقتًا للبحث، والتوهان في الطرقات خلف آثار يخمن أنها آثاره. أو وراء رائحة يعتقد أنها رائحته.

في حوش المساكين، حدد هدفه. أن يقف أمام كل إشارة بالفحم، ويتفحص كل صورة لآدمي مهما كانت عبثية أو بلا معنى. اقترب كثيرًا من الوجوه. سأل عن الأسماء، والهوايات. تساءل أمام مجموعة أصحاب فتحت له حلقتها عن طيب خاطر: ما هي أغرب الأشياء التي تخطر على بال الشخص وهو يطالع رسمًا يعتقد أنه يشبهه؟. أثناء دردشة

عابرة مع مجموعة أخرى كان يتطرق إلى معاناته مع النوم. يسألون: لماذا؟. يجيب: لأنه يرى في النوم، أنه تحول هيكلاً عظميًا يطارد صورته المنعكسة على جدران مدينة أشباح واسعة الأرجاء. وكلما جلس إلى جوار أحدهم على حافة ملعب كرة القدم الوحيد الموجود في الحوش، تمنى لو أنه يتقن الرسم ليرسم اللاعب رقم تسعة، أو ثمانية، أو عشرة، أو أي لاعب بأي رقم، وهو يركل الكرة أو يتلقاها بمهارة، مع الاتحادي، يحب نادي الاتحاد ومع الأهلاوي، يعشق نادي الأهلي. وهو وحداوي صميم أمام جمهور نادي الوحدة.. شرب مجاملة أقداحًا من الشاي، ودفع أثمان أنواع مختلفة من العصائر، والبيرة المدجنة، والمشروبات الغازية. مص ثمار القورو المرة، وساهم في توسيع دائرة الطلب على شراب السوبيا. تنشق النشوق، ودس في فمه الشمة وهو يشرح لمن حوله سبب الحروق التي على أطراف أصابعه وخصوصًا السبابة والإبهام. بصق على الأرض لعابه رائقًا في جلسة على العود مع ثلة من أهل الكيف في تعاطي نبتة القات. اتهمه شباب العقاقير المخدرة بأنه "دبوس" من المباحث الجنائية مسلط عليهم، فأخرج لهم من جيوبه علكًا كثيرًا

ومفرقعات. آخرون اشتهروا بالمجون والعربدة، لاحظوا أنه مرح للغاية وجذاب، فعرضوا عليه الخروج في سهرة خاصة بالبر إذا أمكن.

وفي الإجمال، عرف أصنافًا عديدة من الشباب لا يربط بينها سوى أنها جميعًا داخل السور ورغم ذلك تعيش في دوامة بشرية واحدة تخبئ أحزانها في صخبها. بدو من قبائل شتى، هوساويون، برناوية، بلوش، بخارية، جاوه، حضارم، أكراد، شناقطة، أفغان. ومن بين كل أولئك، لم يجد يدًا تشده إلى طرف المكان ليدعي صاحبها أن الأوان قد آن ليحط رحاله على حقيقة أن الرسام غير موجود، لا في حوش المساكين ولا في الواقع. لم يقف معه أحد، في المقابل، ليؤكد وجوده ويشرح له أوصافه، وعاداته في الحضور، وأماكن نشاطه، وانتهى إلى أن الكل في تقديم المعلومات الضرورية عن الرسام إما لا يعرف شيئًا البتة، أو أن المسألة مرت عليه لتذكره أنه إذا كان عليه أن يضحك، فليضحك الآن. إلى أن قابلة رجل طويل في وسط الحوض، بدا له من ملامح وجهه أنه قطع شوطًا كبيرًا من العمر في الشقاء والبؤس، رغم

هندامه الحسن وتأنقه الملحوظ. تأمله الرجل مدة تكفي لأن يتوجس منه حاقل شرًا، ثم تكلم بمودة ظاهرة:

- وجهك ليس بغريب عني. لحظة لأتذكر أين رأيتك. .. لحظة، لحظة.. نعم، أنت ولد "أبو غرة" صحيح؟!!
- "أبو غرة" من يا عم؟. لابد أنني ذكرتك بشخص آخر يشبهني. عن إذنك.
- مهلاً. أنت ولده.. إنني متأكد من أنني رأيتك معه أيام كان يبيع ويشتري السواكن في حراج الغنم.
- إن كنت يا عم تتحدث جادًا، فلست أعرفك ولا أعتقد أنك رأيتني من قبل. أبو غرة من هذا الذي تزعم أنني ولده؟ وسواكن ماذا؟!! أبى أسمه مطلق. مطلق يا عم وليس" أبو غرة" .
- مطلق.. نعم، هذا هو اسمه وأنت حاقل.. أليس كذلك؟
- من أين تعرف أين؟!.. وكيف عرفت اسمي؟
- إنها قصة طويلة. أخبرني كيف حال أبيك؟
- بخير، ولكن من أنت؟!.

- أنا صديق قديم لأبيك. كنت معه جنديًا في نفس السرية التي فصل منها.
- أهلاً بك. والآن عن أذنك..
- لماذا أنت مستعجل؟! تعال معي لأحكي لك حكاية غريبة حدثت لي.
- شكرًا لك، ولكني فعلاً مستعجل وأريد العودة إلى المنزل بأسرع وقت.. مع السلامة..
- ولكن الموضوع يهمك.
- ماذا تقصد؟!
- أتحدث عن هذا الشخص الذي سمعت أنك تبحث عنه هنا. أقصد الرسام!.
- ولم لا تحكي عنه هنا؟!
- إذا كان يهمك أن تعرف عنه شيئًا، فتعال معي إلى مكان قريب من هنا. لا أكذب عليك.

ساورته الشكوك في الرجل. إما أنه شخص معتوه لديه مشكلة عويصة في عقله، أو أنه لوطي يبحث عن طرايده بين مجموعات الشباب المتجولة في المكان وعليه أن يحذر منه. أو هو مدسوس له من قبل المباحث للحصول على

معلومات إضافية عن علاقته المزعومة بالرسام. الأمر الذي لم يفهمه هو لفظة "أبو غرة" وعلاقة اللفظة بأبيه، لقب مثير للسخرية والتندر!. "أبو غرة"!!. تساءل وهو يمشي، بمحاذاة الرجل مغادرًا المكان: ترى، هل كان يوجد غرة في رأس أبي بالفعل ولذلك أطلقوا عليه ذلك اللقب ، أم أن للغرة معنى مختلف لم أدركه بعد؟!. لم يسبق له أن رأى رأس أبيه بشعر وافر منذ أن وعى النظر إلى الأشياء، حليقًا على الصفر، كان يراه كلما كشفه أمامه ومسحه بيديه تعبيرًا عن التعب أو لمجرد تدليك الرأس لا أكثر. في مقدمة الرأس يوجد فقط أثر الجرح القديم. غير ذلك لا شيء. جلدة لامعة تتزلق عليها قطرة الماء كما تتزلق على سطح كرة زجاجية نظيفة.

الغرة، الغرة، يا حافل. همس لنفسه ضاحكًا، وهو يعبر مسافة معتمة متجهًا بصحبة الرجل إلى "الهدام". بيوت شعبية قديمة كانت قد هدمت البلدية نصفها لمخالفتها قوانين تصاريح البناء، وتركت النصف الباقي للكلاب والقطط وبعض المتشردين. البدو الذين شيدوها طردوا من الموقع بقوة من الشرطة والبلدية، يتقدمها بلدوزر عريق في تقويض الأبنية الشعبية. قالوا لهم: أرحلوا من هنا فهذا المكان للدولة وليس

لكم.ولما كانوا لا يعرفون الفرق بين ما هو للدولة وما هـــو للوطن، أصيبوا بغربة في القلب وأقلعوا عن التشبث بفردوس صندوق التنمية العقاري الذي تفشت أخباره في كل مكـــان. ومرة أخرى جمعوا أولادهم وأثاثهم في شاحنات، ثم تمزقوا في الآفاق، وهم يلعنون البلدية ويشتمون الشرطة.

في الطريق ناوله الرجل قبضة من الفستق المملح الذي كان معه. أكله حاقل بدون أن يخامره شك في لذته وطـــراوة مذاقه. ارتفع سعال الرجل فاكتظ صدره بصوت البلغم. رغم ذلك، شرع ينشد بصوت خفيض إحدى القصائد التي بالكـــاد حفظ منها:

"تدلّى مِن الشّجر المرِّ.. ثم استَوَى
عِنْدَ بَوابةِ الرِّيحِ
أجهش:
بوابة الريحِ
بوابة الريحِ
بوابة الريحِ....
فانبثق الماءُ من تَحته غدقًا،
كان يسكنه عطش للثرى

كان يسكنه عطش للقُرى
كان بين القبور مُكِبًا على وجههِ
حين رفَّ على رأسه شاهدان من الطير..
دار الزمانُ
ودار الزمانْ
فحطَّ على رأسه الطائرانْ.."[1]

كان صوته رغم حشرجته مقبولاً، ينفع لكسر الصمت الذي تسامك في الطريق. أما ما سمع من القصيدة، فأفترض أن ثمة طرق أخرى في هذا العالم غير هذا الطريــق الــذي يقطعه بقدميه. طرق لا نسلكها بالأقدام على الإطلاق، وإنمــا نسافر فيها بوسائل أخرى يعتقد حافل أنه، للأسف، لا يملــك منها ما يكفي في الوقت الحاضر. فما الذي حدا بهذا الرجــل لإنشاد مثل هذا النوع من القصائد الغامضة؟. منــذ البــدء، لم يقتنع حافل بفكرة ذهابه معه، ووصف نفســه بــالمجنون والمتهور من أول خطوة. لكنه، في نفس الوقت، لم يرضــخ لفكرة البقاء وترك أية فرصة لمعرفة أي شيء عن الرســام، تمضي هدرًا. ولئلا يستسلم لأفكار تخدم فكرة النكوص عــن

---

[1] المقطع الشعري للشاعر السعودي محمد الثبيتي

البحث، انطلق بسرعة أكبر لاحقًا بالرجل الذي طوال الطريق لم يلتفت إليه، ولم يتكلم معه. دخلا عتمة البيوت، وشوارعها الضيقة من فتحة جدار واسعة جعلت بابًا للدخول المختصر. سمع حافل نباح كلاب قريبة، ثم ما لبث أن اشتد النباح حتى ظن أن الكلاب ستظهر عليه من أول عطفة تقابله. غير أن الرجل قال هنا البيت. كان عبارة عن غرفتين صغيرتين، لكل منهما باب مستقل، ونافذتان. كانتا غائصتين في قلب ركام من الحجارة وألواح الزنك الممزقة. فقط الطريق الضيق المتعرج هو الذي يبوح بهما، ما أن يخرج الماشي إليهما من حطام وخرائب البيوت المجاورة.

بالنسبة إلى حافل، بقي رأيه في وصف نفسه بالمجنون على ما هو عليه، حيث غامر مع رجل لا يعرفه في الدخول إلى منطقة مرعبة كأنما خرجت لتوها من بين فكي زلزال مدمر. أول ما فكر فيه هو أنه، كشاب يخشى على نفسه من هتك العرض، أصبح سهل المنال. تفقد قدراته المتوفرة، فلم يجد إلا قوة رجليه في الركض وصراخه إذا لزم الأمر. وساورته أفكار في الموت على أيدي رجال غلاظ الطباع، خارجين على القانون، يكادون أن ينقضوا عليه للنيل من

عقته، وتخيل نفسه، تحت أجسام ثقيلة متوحشة، يحاول اللحاق بأنفاسه متحاشيًا قدر المستطاع استنشاق التراب القريب من أنفه، وفي نفس الوقت يحاول التشبث بعذرية جسم غير منتهك، لو حدث ذلك، فأغلب الظن أنه سيموت كدجاجة سقط عليها من حيث لا تدري طابور من الجياع. وبحذر بومة برية مستنفرة، أدار عينيه في المكان مبتدئًا بالنقطة التي وراء ظهره ومنتهيًا إليها. قرر أن من الصعب تحديد أين يكمن الخطر في منطقة تعج بالأنقاض في كل مكان. أسوأ ما في المشهد، أن الظلام بث عروضًا فوضوية من الشعوذة البصرية والأخيلة السوداء المتقافزة هنا وهناك بحيث يصعب التفريق عند من هم في مثل حالته بين الحقيقة والوهم كانت رغبته الدفينة أن يخرج من المكان حاملاً في ذاكرته أغرب نكتة في حياته. كأن يفاجئه الرجل وهو واقف على باب منزله بسؤال مثل: نعم، أية خدمة؟!. أو بسؤال مثل: والآن هل تعرف طريق العودة؟!!. وذلك ليقطع بشكل يقيني وحاسم أن الرجل يتقن صنعته كمهرج خفيف الدم لا يتردد في عمل أي شيء لجلب المتعة إلى روحه وترطيبها بالتنكيت. سيحبه لو فعل ذلك وسيتخذه صديقًا. وبالطبع

سيضحك من المقلب الذي أوقعه فيه، وعن طيب خاطر يقسم أنه سيسامحه على فعلته إذ أمده بكـم وافـر مـن المـرح المفاجئ، وبطمأنينة كان بحاجة إليها.

وفيما هو يحل بصمت خيوط أفكاره، صدر عن الباب، وهو ينفتح، صوت صدئ بفعل احتكاك المفصلات، فانتبه، من الداخل خرج كائن بشري سوده الليل حد أن ملامح وجهه اختفت بمجرد أن خطى من فوق عتبة الباب. ضوء السراج الذي بقي وراءه في الغرفة، كشف ألوانًا لا حصر لها ملقاة عشوائيًا على الجدار الظاهر للعيان. ولأن البـاب انغلـق بسرعة، لم يثبت في عينيه سوى الشبح القزم الذي دفع الباب وخرج. كانت طفلة ربما في العاشرة، برأس صغير ذي شعر منفوش وخطوات مشوشة. اقتربت منه، وعندما لم يبق بينـه وبينها إلا أمتار قليلة، انحرفت يسارًا ووقفت. ظلت صامتة. بقي وجهها بعيدًا وعصيًا على رغبته في اكتشاف ملامحـه والتفرس فيه، ومرة أخرى، انفتح الباب وخيـل لحافـل أن صوته صار أعلى وأكثر فظاظة. وفي قلب الغرفة، رأى نور السراج ثابتًا على الجدار ما زال، كما في المرة السابقة، غير أن الألوان امتلأت بانعكاسـاتها الداخليـة تحـت ضـوئه ،

وتشبعت في خطوطها تداخلات الضوء والأشكال. كان الرجل يدعوه للدخول. تفضل، قال له، وأمسك بالباب مفتوحًا، مفسحًا له الطريق إلى الداخل. بدت له الغرفة أكبر اتساعًا مما كان يتصور، وأكثر اكتظاظًا بالألوان. أثاثها قليل ومستعمل بإفراط. لا بأس، ليجلس فحسب، فالمكان ليس مكانه ليبحث عن الموقع الذي يعجبه الجلوس فيه، وليشترط الأثاث الذي يروق له. لكنه عطشان، وهذا هو المهم، فجوفه يكاد يتحول إلى صحراء قاحلة من شدة العطش. جلس على "طراحة" من الإسفنج مكسوة بقماش رمادي تالف، ويتوسطها مخدة صغيرة مناسبة لسرير طفل. كان ضوء السراج الموضوع على تجويف النافذة المغلقة، يشع مع زجاجة متسخة، في جزئها السفلي فجوة مفتوحة من كسر قديم، أهلاً بك ، قال له الرجل. ثم سأله ما إذا كان عطشانًا؟. أجابه حالاً موافقًا، ثم أضاف: لكني لن أبقى هنا طويلاً، عليّ أن أعود إلى البيت باكرًا. ألح الرجل، وهو يخرج من الغرفة، في إكرامه بما يليق ثم قال أنه سيعود في الحال.

على "الطراحة"، وفيما هو يعبث بالمخدة الصغيرة في انتظار الماء، تثاءب. قرصات لطيفة وغريبة كأنما صدرت

من أفواه فراشات جائعة، انتشلت من عينيه رغبتها في تتبع خطوط الوسخ في المخدة، وأشاعت فيهما رغبة أخرى. النوم على المخدة الصغيرة نفسها. بعد لحظات مقاومة، فاجأته رقبته بالتخلي عن صمودها الطويل تحت رأسه. تحولت إلى زنبرك رخو يتصرف بها ثقل الرأس تارة إلى الأمام، وتارة أخرى جهة كتفه الأيمن. لا أمل في المقاومة. آخر نظرة كانت على الباب. لكنه فوجئ، في تلك اللحظة الخاطفة، أن الغرفة ضجت بسواد مهول. كل شيء حوله صار كتلة صماء من ليل دامس. حتى عندما خشخشت تحت رأسه المخدة، تهيأ له أنه سحق جزءًا من العتمة بينه وبينها. لكن تلك السقطة الخفيفة لرأسه، فتحت له من فجون يجهلها عالم الأحلام والرؤى، أو هكذا كان يفترض. فيما بعد، وصفها بأنها نزهة حقيقية، وجعلها قصته الكبيرة رغم أنه لم يحدث بها إلا العم قائد الأشول في داره ذات مساء. قال له لنفترض أنها أحلام، ثم قص عليه ما رأى، لكن الأشول بعد ذلك صار يتحاشى الجلوس معه والتحدث إليه.

في بداية الحلم، قال إنه لا يدري، ما إذا كان صخرة على حافة جبل أم شيئًا آخر معلق بين السماء والأرض، ذلك

الشيء الذي خشع تحته. كان يجلس متربعًا، تحت شرشف من الهواء رطب وبارد. أما الوقت، فكان خليطًا هادئًا ومسالمًا من الأسود والأبيض. شيء من قبيل أن يقف المرء على تلك المنطقة الرخوة من آخر الليل وهي في حالة إذعان صامت لطلائع نهار قادم لا محالة. لكن الأفق أمامه، كأنما كان يتمدد بفعل مضخة عملاقة تدفعه إلى كل الأنحاء. ذلك، ما جعله مغتبطًا بحدة بصره، كما علق لاحقًا. إذ انفتح لبصره مخرج دخلت منه الأشياء والأمكنة أو يكاد يقول دخل منه كل شيء رآه ولم يره. أحس به أولاً يتشقق من خلاياه، أو بوصف أشمل يتحلب من جسده المعلق بين السماء والأرض وذلك بالمقدار الذي خمن فيه أنه هو بنفسه يتقصد من يباس الزهور التي حوله إن كان ثمة زهور. أو ينتأ من الصخور التي تعانقت تحته فصارت جبلاً إن صح تقديره. جذعه الذي أصبح صلبًا، قال عنه، ولماذا لا يصبح خشنًا أيضًا لأكون شجرة حتى لا أسقط. كان يخيفه أن يتبخر، أو يغلي، أو يصير زجاجًا ويتحطم رغم أنفه، تحت ضغط المشهد الذي ملأه وهطل عليه.

"بماء أرضي متكدر اللون، رأى السقاة يخرجون من الآبار والبرك المظلمة ملطخين بالأطيان السفلية، واحدًا في إثر الآخر أعدوا المواثيق على الحواف الرطبة، وأطلقوا على أنفسهم أمناء الينابيع، وبعد ذلك اندفعوا مجاهرين بفكرة الحفاظ على شرف الماء من الدنس. طرقوا الأبواب ووضعوا في أيدي أهلها رقاع الدعوة لحضور حفل السقاية الأكبر في وسط المدينة. كانت للرقاع أفواه طيور وألسنة شعراء شديدي الحماس والفذلكة. في لحظة خاطفة، صارت المدينة على شكل صحن، يتوسطه ميدان واسع له مدرجات، وله ممرات ملونة، وثمة أعلام تخفق على أطراف منصة كبيرة في الصف الأول من الميدان. صار الناس يتقاتلون على موضع القدم في الصفوف الأولى، ويتدافعون بالأكتاف على المواقع الخلفية، بينما في وسط الميدان تحلق السقاة حول المياه المحفوظة في أوعية معدنية بيضاء كبيرة الأحجام ذوات أعناق بارزة ورءوس تشبه رءوس الهداهد. وعبر سلم الهواء الملوث كانت الكلمات إذا تصعد وتترجرج كفقاعات ضخمة، تصل إلى الآذان، وفي الأعلى يرتطم بعضها ببعض فيحدث لطباق الجو العليا صفير حاد غير أنه ما يلبث أن

يبتعد مفسحًا المجال لصفير قادم، كان السقاة عن فم واحـــدة يتكلمون، مصوبين أعينهم إلى أوعية الماء المرتبـــة بشـــكل دائري . كانوا يلقون خطبة احتفالية من غيـــر أوراق. فقـــط الكلمات تخرج من الأفواه في وقت واحد، وبنبـــرة صـــوتية واحدة حد أن بعض الذين وقفـــوا فـــي الصـــفوف الأخيـــرة تساءلوا ما إذا كان بالإمكان أن يرى أي منهم الشخص الذي يتكلم. كانوا يتحدثون عن الماء الذي حفظته لهم الأرض منذ ملايين السنين. في العتمة السفلية استقر محتفظًا بخصائصـــه الأولي وسلالته المائية القديمة عب القرون. قالوا أنهم كأمناء أزليين على الينابيع النقية، ورثوا عن آبائهم ما كانوا حفروا من آبار فواصلوا هم الحفر ناحية الماء الأول الكامن في أبعد مكان بالأعماق. وقالوا أنهم في حين كان النـــاس يســـافرون على وجه الأرض إلى أي مكان يريدون، كانوا هم يواصلون سفرهم إلى أسفل. وبينما يقصد الناس في أسفارهم الأمـــاكن البعيدة لرؤية الأحباب، والأصحاب، من أجل قضاء أجمـــل الأوقات معهم، كانوا هم يهجـــرون الأحبـــاب والأصـــحاب، ويغادرون الأوقات الجميلة من أجل رشفة من الماء الخالـــد. وقالوا أن أمنا الأرض تتمتع بالحياة الطويلة لأنها تشرب من

ذلك الماء. لكنهم لما رأوا أن ذلك الماء الذي يريدون بعيد الغور ولا يمكن أن يصلوا إليه في حياتهم مهما كانت مديدة، ولأن الآبار التي واصلوا حفرها صارت تبعدهم أكثر فأكثر عن مساكنهم على سطح الأرض وعن أولادهم الذين سيرثونهم في المستقبل، ولأن ظهورهم توشك أن تتصلب في أشكال نصف دائرية ، ولأن ألسنتهم تقلصت إلى الداخل وما عادت تحسن الكلام كما من قبل، ولأن أعينهم تهدلت وصارت تنفر من نور الشمس، من قبل، ولأن أعينهم تهدلت وصارت تنفر من نور الشمس، فقد فكروا طويلاً، وتشاوروا فيما بينهم فرأوا أن يخرجوا من أعمق نقطة وصلوا إليها، كمًّا وافرًا من طين الأرض الداكن الرطب ، ثم يضعوه في برك واسعة إلى أن ينزل المطر ليختلط عندئذ قطر السماء النقي بطين الأعماق الخام الأصيل. قالوا أن الحياة على الأرض، وبهذا الوجه الذي يتقنعه الناس، إنما تحمل في باطنها التلف ولن تستمر طويلاً، وذلك لأنها تفتقر إلى كثافة الطين السفلي ودفء الأبد في مياه الأعماق الخالدة، وفي خطبتهم الطويلة شكروا الطحالب في المياه السطحية الآسنة، لكونها أمدتهم بالدرس البليغ عن الوجود الضحل سريع

الزوال وقالوا يأخذ لون الماء من ولد بالقرب من مســـاقطه، وينجو من الغرق فيه من تشكل في تجمعات سيوله. وقـــالوا من حمل منذ الصغر يرقات الملاريا اليافعة فـــي غدرانـــه، يمكنها أن تستلب منه مخاطه وتقرح خياشيمه لكنها لن تجعله يرقة ولن يصبح يومًا ما بعوضة. والمياه ليست سواء في كل الأرض. مثلنا المياه، وليس يشبه الماء الموجود في أحـــدنا، الماء الموجود في الآخر. ثم أكدوا بيقين قاطع أن المياه فـــي أبداننا بدأت تفسد وتتعفن وتمتلئ بالطحالب ، وأننـــا نختلـــف عن المستنقعات الراكدة والمتجلطة منذ القدم، في كوننا صرنا مجمعات ساكنة لمياه أخرى ليست تنتمي إلينـــا. وشـــرحوا بكثير من التركيز على الكلمات كيف أن الكثير من الحشرات مثل النمل والذباب، والكثير من القـــوارض مثـــل الفئـــران واليرابيع، والكثير من الزواحف والدواب احتفظ بخصـــائص سلالته الأولى فلم يتغيـــر شـــكليًا، ولـــم تخـــتلط بالمعادلـــة البيولوجية لمياه نوعه الأساس، تراكيب معادلة غريبة. ورأى حافل – كما شرح لاحقًا للعم قائد الأشول دون أن يؤكد مـــا إذا كان ما قاله هو ما حدث بالضبط أم شـــيئًا يقاربـــه – أن المكان برمته تحول أذنًا كبيرة مفتوحة وموجهة صوب مكان

واحد لا غير. صوب المكان الذي يقف فيه السقاة وهو منهمكون في إلقاء خطبتهم الطويلة فيما أبصارهم مصوبة إلى أوعية الماء. كان الكل يريد أن يصل إلى ذروة الحدث، إلى اللحظة التي يبدأ فيها توزيع رشفات من الماء المكنون على الحشود الغفيرة. غير أن السقاة لم يتوقفوا عن الكلام، ولا حتى لمجرد أن يلتقط أحدهم أنفاسه، بل ظلوا يتكلمون عن قصة التغير الطفيف الذي أصاب قلب الأرض قبل ملايين السنين فنتج عنه أن تحول الباطن إلى حمم، والحمم صارت جبالاً راسية ما تزال تحمل رماد الولادة دون أن تستطيع قوى الطبيعة بث الوهن في صخورها وتشويه صورة بنوتها للأرض. بعد ذلك، أشاروا إلى أننا كبشر يلزمنا ألا نتغير بسرعة كما تتغير أشياء الطبيعة الأخرى وذلك لنستمر محافظين على نفس الثمرة البكر للحياة. ليست الأرض وحدها يحتفظ جوفها بماء الكينونة الأولى، وإنما نحن أيضًا بما أننا أبناؤها الخارجون من تراب الخلق الأول الذي يحمل عناصرها وينتمي إليها ولكن يتحتم علينا أن نمد عروقنا بعيدًا إلى باطن الأرض، كما تفعل الجبال، لننعم بكنزها العظيم، وتدفق الألوف إلى الميدان يريدون رشفة من

الماء وإن لم تتيسر فقبضة من الطين يضعونها في أفــواههم ويمتصون ما تبقى فيها من قطرات. بيد أن السقاة، وخوفـًا من أن تفلت الأمور من أيديهم وتنتقل إلــى أيــدي الحشــود الهائجة، سارعوا إلى تقديم الكبراء وذوي النفــوذ والســلطة فمنحوهم مغاريف معدنية وفتحوا لهم الأوعية فشرع أولئــك القوم يعبون من المياه ويفيضون منها على أبدانهم. ثم جــاء دور الفئات الاجتماعية الأخرى، كــل علــى قــدر منزلتــه ومكانته لدى الكبراء وأهل الحل والعقد في المدينة. حتى إذا لا لم يبق إلا الطين مختلطًا بنتف الطحالــب، فــتح المجــال للعامة فانهدت إليه من كل صوب يطأ بعضها بعضًا، ويلعن بعضها بعضًا. وفي الوقت الذي مضى فيه كل إلى ســبيله، وبعد أن عادت المدينة إلى شكلها الأول واستقامت شوارعها ودورها، قرر حافل – كان يقول للعم قائد أنه يظن أنه بالفعل قرر_ أن يبحث عن السقاة ويستفسر منهم عن قصــة المــاء الغريبة وحقيقة أزليته وخصائصه الخارقة. لكنه بدلاً من أن يعرف من الناس أين يمكن أن يجدهم، فوجئ بالناس يسألونه عن حقيقتهم وهل هم سقاة حقيقيون وأمناء ينابيع بالفعل كمــا يقولون، أم أنهم من صنع المجلس البلدي للمدينــة لإضــفاء

مسحة من القداسة على هيئات أعضاء المجلس هيئات أولادهم وبناتهم وزوجاتهم إلى آخر السلسلة المعروفة؟. وحطم لبان مغرافه الخشبي على رأس جبل في منظر طبيعي علقه على جدار المحل وقال ما معناه: أكرههم، عنصريون وسفلة. وذكر أنه لم يحضر مهزلتهم، كما وصفها، لكنه نتيجة لذهاب الناس عانى من حالة كساد ذلك اليوم. أحد زبائن محل لبيع العصائر، وجد الفرصة سانحة ليعلق على الحدث من وجهة نظره ، قائلاً أنه بعد أن ضرب بالمغاريف على رأسه لأنه حاول مزاحمة كبار القوم ليشرب معهم ، أدرك أنه حتى لو وصل إلى أعماق الأرض واستخرج ذلك الماء بأظافره ورموش عينيه، فإنهم لا محالة آخذوه منه وسالبوه إياه رغمًا عنه. وخلص إلى القول، وهو يلتهم قطعة خبز مدثرة بالطحينة، أن الماء العكر الذي شربوه كان بالضبط ما يستحقون لأنهم ليسوا أنقى منه. وفي الطريق إلى وسط المدينة شعر حافل بالعطش يشرب كبده، فعرج على بائع ماء، يقف على كتفه طائر هدهد متوسط الحجم، وفي وجه الرجل الغريب، وتحديدًا في خده الأيسر، ثبتت حلقة معدنية كبيرة. كان الرجل يبتسم في وجوه الناس، بينما

الطائر ينادي بصوت مسموع: وصلتم، وصلتم، ماء طبيعي، ماء طبيعي، اشربوا اليوم وليس غدًا، وصلتم، وصلتم. وكان الذي يمر، يتوقف بالقرب من الرجل وطائره العجيب، وغالبًا ما يستجيب لنداء الطائر فيأخذ جرعات قليلة من أقداح الماء الصغيرة المرصوفة على عربة ذات عجلات أربع يدفعها الرجل أمامه، ومع اقتراب حافل من العربة، قال له الرجل في شبه توسل: ارو ظمأك من عندي. ستجد أن جسمك ارتسمت فيه مياه أقداحي حتى لتحس أنك نلت فوق ما تريد. ومرت لحظات، قبل أن يتأكد حافل أن الرجل كان يعنيه بكلامه. كان حافل يريد أن يسأله بتهكم قائلاً: وهل تريدني أن أذهب إلى مكان آخر غير المكان الذي يوجد فيه الماء يا حاج؟! لكن الطائر سبقه إلى الكلام فتكلم: وصلتم، وصلتم، ماء طبيعي، ماء طبيعي، اشربوا اليوم وليس غدًا، وصلتم، وصلتم وما أن أنهى مقطوعته الترحيبية حتى قفز إلى الحلقة المعدنية المثبتة على خد سيده، فدخل في وسطها واتجه بجسمه ناحية حافل، فصار كأنه الجزء الخرافي المفقود من وجه بائع الماء. عندئذ سمع حافل الرجل أو الطائر – لا يدري في الواقع أيهما الذي كان يتكلم لأن

فم الطائر كان أيضًا يتحرك مثل فم سيده، وكــان بمنقــاره الطويل الدقيق يكاد يكون مكملاً لفم الرجل – ســمع حافــل أحدهما أو كلاهما معًا، يقول له: جرعة واحدة من أنقى ماء في هذه المدينة يا سيدي فيها الجواب الذي تريده عن السقاة. لا يتذكر حافل أنه تحدث عن السقاة على الإطلاق في وقفته تلك. شعر بحرج شديد، لأنه حسب تصوره أصــبح ســهلاً مكشوف الباطن أمام الناس. لقد كان مقتنعًا منــذ البــدء أن قدرته على إخفاء أفكاره وانفعالاته الداخلية ضــعيفة وغيــر جديرة بالثقة ، لكنه ما كان يتصور أنه بمجرد أن ينتهــي أي شخص من التحديق فيه، يكون قد عرف عنه كل ما أسره في نفسه. وخطر بباله أن الشيء الوحيد الذي يكشف ما بداخلــه بسهولة شديدة ووضوح تام هو المصباح بعد أن يضيء، قبل ذلك يكون جسمًا باردًا غــائم الســريرة لا يمكــن اختراقــه ولا يكلف أحد نفسه لأن يرفع إليه بصــره. وتســاءل هــل يضيء هو أيضًا بما في صدره من هواجس وأفكار حالمــا تصبح على قدر معين من الحساسية وإقلاق البال؟. لا يدري، لكن هذا الرجل الذي يلح عليه بأن يتناول جرعة من المــاء الذي يبيعه في أقداحه ، لا شك نظر إليه بعــين مــن يــرى

المصباح مضيئا. على أي حال، لم يقل الرجل أو الطائر ما قاله مصادفة، فلربما وصلت أخبار بحثه عن السقاة إلى كل مكان. ليكن، فهو بالفعل يتمنى أن يعرف أي شيء عن السقاة، وعن طبيعة الماء الذي أسبغوا عليه البركات والقداسة. كان يريد أن يعرف كذلك من أي شيء صنعت هذه لمدينة العجيبة المرنة التي تتبسط وتتروى مع حركة الناس، وتصغر وتكبر مع أحوالهم وأوضاعهم العامة في الحياة، جرعة واحدة يأخذها، لمعرفة حقيقة السقاة، وأقداحًا عديدة يشربها ليوري ظمأه الشديد بعد ذلك. وسقطت الجرعة في جوفه مثل كرة طين باردة وناعمة، واستغرقت فترة طويلة قبل أن تصل وجهتها الأخيرة وتتفتت. لم يشعر بألم، لكنه أحس بالكتلة المائية تنفجر إلى شظايا وقطرات ورذاذ وما تبقى تحول إلى سعادة غامرة تتخبط لوحدها في العراء لأن أحدًا لم يقو على احتمالها. ما تبقى هو صوت الجدول في الصخرة بعد أن تضاعف جريانه على مر السنين فتحولت الصخرة إلى تراب لأن تجربة أن تكون صخرة للأبد وقعت في المكان الخاطئ. لكن المذاق، رغم ذلك كان في النهاية كما لو أنه ليس عن لمتعة واللذة وحدهما يريد أن

يعبر وإنما عن الجرعة نفسها. عن الشيء الغريب والغامض الذي يمكن ملاحظته بصورة عابرة، ويمكن مع بعض المجازفة الوصول إليه، ولكن لا يمكن تفسيره، شيء أقرب ما يكون إلى الشعر، أو إلى الحب الذي في لحظة صار عتيدًا، أو إلى الإلهام قال له الرجل أو ربما الطائر: منذ هذه اللحظة ستعيش بالمقدار الذي استبقيته في داخلك من عطش وبه ستعرف على الدوام طريقك إلى الجرعة المدخرة لك في كل مرة تحتاج إليها. ووجد حافل نفسه، ولما تزل تفاعلات الجرعة تتعاظم فيه، أن رغبته لمعرفة السقاة اندفعت بعيدًا عنه وحل مكانها شيء آخر مختلف.

ما عاد يفكر في أمرهم كما كان يفكر فيه من قبل، وكأنه وصل إلى نهاية الرحلة مع تساؤلات اكتشف أنها يمكن أن تقوده إلى الفهم لو فكر فيها بطريقة مختلفة. كأنه، اكتشف أنه كان يبحث عن العناصر، عن السقاة أنفسهم، بينما أصبح يرجح الآن، أنه كان أحرى به أن يبحث عنهم في الرموز والإشارات وبالطبع ، سيقوده ذلك إلى الدخول في المدنية من جديد، وتلمس معالمها وأبعادها وميكانيكا الحركة فيها برؤية لم تتفتح لوعيه إلا قبل لحظات. رأى الآن كيف يبدو له

الأمر، وكيف بدا واضحًا، في المقابل، أنـــه يجهـــل كيفيـــة التعامل معه. عاد الطائر إلى كتـــف الرجـــل وراح يـــردد: وصلتم ، وصلتم

....

عندما فتح عينيه، وجد الشمس تحرث الســـماء علـــى مسافة قريبة فوق قدميه. كان وحده نائمًا منذ الليل في العراء القاتل للأبنية المتهدمة التي تذكر أنه دخل محيطها مع رجل. وتذكر أنه كان في غرفة حبلـــى بـــألوان عديـــدة. وتـــذكر الفانوس، وتذكر الطراحة، وتذكر المخدة. وتذكر أنه طلـــب ماء وألح في الطلب. بعد ذلك لا يتـــذكر مـــا الـــذي حـــدث إلا لحظة دخوله الحلم وما رأى فيه؟!!. الآن، لا يوجد رجل، ولا توجد غرفـــة، ولا فـــانوس، ولا طراحـــة، ولا مخـــدة، ولا أحد غيره في المكان. المخدة لم تكن في الواقع إلا طوبة متآكلة يغطيها الرماد والسخام الناشئ عن مخلفات موقد قديم ركدت فيه. الطراحة المزعومة ليست سوى الأرض الخشنة الزائغة عن طبيعتها الأولى والمغطاة عن آخرها بالأنقـــاض والرائحة الكريهة. لاحظ أن عقارب الساعة في يده تعطلـــت حركتها وتوقفت بالقرب من الثانية عشرة ليلاً. لكنه يتـــذكر

جيدًا أنها كانت في حدود الثامنة عندما دخل المنطقة واقترب من هذا المكان، ذلك يعني أنه أمضى وقتًا طويلاً نائمًا في مكانه محسوبًا على المنطقة كجزء من أنقاضها التافهة، نهض مرعوبًا مما حدث، غير مصدق أنه يمكن أن تلعب به الجن بهذه الطريقة السمجة. لا يوجد تفسير آخر. ولو وجد، فلن يكون أقل تفاهة مما صار. وتصور الحادثة على أنها نكتة متعمدة كان هو الطرف الذي مثل فيها دور الضحية المنتخبة من أجل الضحك والفرفشة وتضييع الوقت من وجهة نظر ذلك الجني أو مجموعة من الجن استدرجه أحدهم إلى المكان ولبّسوا عليه الزمان والمكان والوعي. لكن الحلم في ذاكرته احتفظ بصفائه ورونقه حد أنه يتذكر تفاصيله الصغيرة كلما استعاده وركز في أحداثه ومجرياته. وخشي أن تكون الحارة انقلبت فيها الأوضاع من أجله فأسرع عائدًا من حيث أتى ليبدد عن أمه فجيعة فقده. هناك سيصلي الفجر أيضًا. وهناك يفترض أنه سيجد الرسام. وأن السماء الـ بلا خدوش والصافية تدفعه إلى رسم عشرات الأعين على مجموعة من الصواريخ ثم إطلاقها فوق البلدة ليرى ما يحدث فيها ويستكن في جلدها من خفايا. وأن الرسام لم يعد

ذلك الشبح الذي يأتي خفية ليضع ودائعه الغامضة في جدران المدينة ليتحمل هو وزرها لدى الشرطة والقانون ونظـرات المجتمع وكما حدث في الحلم، سيجده في الرموز والإشارات أيضًا عندما يلتقي به سيقول له عن كمية الحنق والشوق التي امتلأ بها قلبه عليه. لكنه، في المقابل، سيحكي له عن الثقوب التي بسببه يستطيع أن يلج منها عبر الجدران من لا يتسع له الباب وسيحذره من الأبواب الكبيرة بالذات. أبـواب الحديـد التي تعب في صنعها الحدادون في الورش، وظلـوا أيامًـا طويلة يطئونها بالأقدام، ويحتسون تحتها الشـاي، إلـى أن انتهوا منها ، ثم لما ركبوها في أماكنها قدسـوها وصـاروا يتحاشون لمسها أو الاقتراب منها. وسيحذره بشدة من رسـم أية صورة على جدار بيت أمه لئلا يتشاءم منها الجيران كما تشاءم الناس من أصحاب الجـدران التـي عليهـا صـورة ورسوماته.

لم ير أحدًا في الطريق يبحث عنه أو يناديه. شـوارع هادئة، وأعين منتفخة من أثر النوم، أو مـن أثـر الرتابـة والسكون والملل. الخط الزمني الذي تبزغ في أوله المدينـة، يمسك المساء بطرفه الآخر ويشده بقوة. نفس المساء الـذي

يمسك بنهاية الخط الذي تبدأ منه الحكايات، والوجوه في كل يوم، كأن المدينة، في تصور حاقل، تعيد بـــنفس الأخطـــاء والركاكة قصتها اليومية على أمل أن تنتهي منها قبل الظلام. لكن، كيف لم تتنبه الحارة لغيابه ليلة كاملة؟.. الحارة علـــى الأقل؟!. كان من المفترض أن تجد في حادثة غيابه، وخـــزة حادة في شريان حياتها التقليدية الســاكنة، فتــنهض عندئــذ للبحث عنه، على اعتبار أن أحد أبنائها اختفى بطريقة غريبة وغير مفهومة. ليست، كل يوم، تختفي مدينة أو بلــد وإنمـــا يختفي، ويموت، الكثير من البشر فـــي ظـــروف وحـــوادث مختلفة، بعضها معروف وبعضها غامض، وعليه فلم يحدث أن ذهب أحد من الناس للبحث عن مدينة ضاعت أو اختفــت فجأة، بل العكس هو الذي يمكن أن يحدث وعندها لن يكـــون بعيدًا عن المنطق أن يتفق الجميع علـــى أهميـــة الشـــخص المفقود. كان حاقل، عندما يفكر بذلك الشخص، يتمنـــي لـــو يكون هو الشخص المفقود، لكن أحدًا، لم يسأل عنه كما يبدو، ولا حتى مسلط، ولا بقية أصدقائه الذين قضى معهم شـــطرًا كبيرًا من عمره.

روى للتراب خيبته، وهو يركله بقدمه، فطار الغبار هازئًا من ثقته الكبيرة بالحارة والأصدقاء. قال له التراب: لماذا لا تتزوج؟. ضحك حافل من الغبار: أتزوج؟. قال له التراب في الركلة الثانية: أجل. وتصاعد الغبار بعد الركلة، وانطلق أمامه كحرس شرف متأجج العاطفة، فضحك حافل من هشاشة موكبه وأيقن أنه إن لم يكسر قدمه بحجر ويتوقف عن هذه الترهات فسوف يؤول به الحال إلى أن يقبل قدم أول امرأة تقابله ويطلب يدها للزواج. هيا افعلها، قال له تراب أول شارع يستقبله في المدينة. وأضاف تراب ذلك الشارع: ألا تلاحظ، أنك لحد الآن لم تلمس أنثى سوى أمك العجوز الكسيحة؟ هناك فتيات جميلات في الحارة يشتهين النوم معك لأنك صرت بطلاً في أعينهن. ألم تلاحظ ذلك؟. كلا، أجاب حافل وهو ينفض نعاله من الغبار على وجه الإسفلت، وأكمل مرغمًا ليتخلص من الكلمات المختنقة في حلقه: كلا، لم ألاحظ شيئًا من هذا القبيل. بل هناك من يحبك فأنت في نظره الشخص المرتجى لمقاسمته أيام ما بعد العشرين، بصعوبة همس الغبار بالكلمة الأخيرة ثم تلاشى. من هو ذلك الشخص؟ سأل حافل وانتظر الجواب. لكن الغبار كان قد

قرر ألا يقول المزيد بعد أن اختار حافل طريقه ومشى على الإسفلت مؤولاً ما حدث على أنه من نزعات شياطين الصباح، أو من تهيؤات مزاجه النفسي المقلوب. غير أن الفكرة صمدت في رأسه لبعض الوقت. لم يفكر فيه أصدقاؤه خلال غيابه؟، هذا شيء صحيح. ولم تخطر على باله فتاة على الإطلاق. ولا فتاة واحدة!. وافق على صحة الملاحظة، وأضاف متحدثًا إلى نفسه على إثر اشتعال خاطف لوجه صبيته، أخت مسلط، في رأسه: ولا حتى هذه البنت الحلوة استطاعت أن تبقى لوقت طويل في تفكيري. ثم تساءل معجبًا: لماذا؟

مر في طريقه ببيت مُرسل، صديقه المتخصص في رسم رءوس الحمير على الجدران. رأى باب المنزل مصحفًا بخرس الصباحات المعتاد في مثل هذا الوقت. صراحة الشارع في الصمت عارية مثل ورقة فارغة. صديقه مرسل ليس له أخت، بل إخوان سبعة، جميعهم من أمٍّ أخرى غير أمه، وهم جميعًا، مع الأب وزوجتيه، يعيشون في مأوى بمساحة عُشة أغنام، الغرف صغيرة ومسقوفة بأوصال الزنك المغطاة بمشمع سميك عن المطر. وعلق حافل على

ضيق المكان: ربما بسبب ذلك جاءوا كلهم أقزامًا بعيون ضيقة وبوجوه فئرانية شاحبة. المكان الضيق يورث ساكنيه بعض ملامحه وكذلك المكان الواسع. ذلك ما تعلمه حافل من شاكر، صديقه الآخر، الذي يسكن في بيت واسع للغاية وله حديقة خلفية رائعة. شاكر طويل القامة، ببشرة فاتحة وكأنه تركي من الأناضول. له أخت بالطبع، لكنها متزوجة من أحد شيوخ الخليج وهي تقيم معه في قصره المنيف في مدينة بعيدة ولا تأتي أهلها إلا في رمضان حيث يعتكف هو في الحرم كما يقال، وتقضي هي بعض الوقت مع أهلها بالبيت. قيل أن أمها عندما ولدتها، رأت في النوم وكأن السماء طاحت فصارت تحت والأرض ارتفعت فصارت فوق، فظلت الأم زمنًا طويلاً خائفة من ذلك الحلم، حتى جاء وفد خاص يطلب يد ابنتها لذلك الشيخ.

خاطب حافل نفسه متحسرًا: هكذا هم الشيوخ، يا حافل، لا يتزوجون إلا أجمل الجميلات، ولا يسكنون إلا في أفخم القصور، ولديهم خدم وحشم وسيارات فاخرة، ويتمتعون بأرفع الخدمات في كل مكان، وإذا تحركوا، انتفخت من حولهم مظلة كبيرة من الجنود والحراس، ودانت

لهم الشوارع، وإشارات المرور، وفوق ذلك يرغبون في دخول الجنة. وقال أنه طالما حسدهم على تلك الوجوه الطليقة والخدود الطرية التي يواجهون بها الناس. أما تلك الابتسامات المعبرة، فلا يدري من أين جاءوا بها من شدة روعتها ورونقها الأخاذ. وتساءل وهو يتجاوز منزل ضابط الشرطة متجهًا إلى بيت أمه: ترى، هل يمكن أن يتغير مرسل ويصبح مثلهم في النعمة وفي المظهر البهي، لو صار شيخًا هو الآخر؟. ضحك من سذاجة تصوره، واتهم نفسه بالغباء لأنه اختار شخصًا بائسًا دميم الوجه انحصرت موهبته في رسم رءوس الحمير فحسب!!. وانفجر ضاحكًا بصوت عالٍ، لكنه وجد نفسه يعقب على نفسه: ومتى كانت الدمامة أمرًا يحتقر بسببه مرسل يا حافل؟!. هناك الكثير من الدميمين الطيبين في العالم وبعضهم يعيش مثل مرسل سعيدًا وراضيًا بحياته. ثم لنفسه أردف سؤالاً آخر: ولكن لماذا أتحدث عن مرسل ولا أتحدث عني أنا؟. هل يصلح وجهي لأن يكون وجه شيخ نعمة؟. ولم لا ؟ ليست النعمة والجاه والثراء والسلطة هي المقياس ليكون المرء شيخًا حقيقيًا بين الناس. يمكنني من الآن أن أكون شيخًا، ليس بما أصبح عليه

أولئك البشر من الغنى والجاه العظيم، وإنما بما أمتلك في داخلي من حب للحياة والبشر، وبما عندي من ضحك وسخرية ومرح رغم المتاعب. نعم، يمكنني أن أكون شيخاً حقيقيًا بيني وبين نفسي. بيني وبين مفرقعاتي. وبيني وبين أصحابي أيضًا. ومن هذه اللحظة، لو جاءني من يحلف لي أنني غير ذلك، لقدمت بلاغاً ضده إلى الشرطة بتهمة التطاول. ينقصني فقط الكثير من المال والكثير من الحظ لأظفر بواحدة مثل أخت شاكر لتصير زوجة لي. أريد امرأة جميلة.

غير أن مسلطًا عندما فاجأه طالعًا إليه من إحدى الزوايا القريبة من بيته، سأله مندهشاً.

- حافل . ما هذا؟. ما بك بهذا الشكل؟

لم يفهم حافل ماذا كان يقصد صديقه الذي أرعبه بخروجه المباغت. ليس من ثمة خطأ في شكله على الإطلاق، إلا إذا كان يقصد ما علق بثوبه من غبار بسبب نومه على أرض "الهدام" بيد أن مسلطاً لم يكن ينظر إلى ثيابه بل كان ينظر إلى وجهه. وكاد أن يقول صرت شيخاً!.

لكنه، نعم، ذكّر حافل نفسه، لم أغسل وجهي. لا بد أنه يقصد أنني لم أغسل وجهي:

- يالها من قصة لم تحدث يا مسلط. هل تـدري أيـن نمت ليلة البارحة؟

- أين نمت؟..

- في "الهدام"

- هل تمزح معي؟.

- أقسم أني نمت فيها ليلة كاملة، وأنا الآن قادم منها.

- ولماذا فعلت ذلك؟! هل جرى لعقلك مصيبة؟!.

- لست أدري في الحقيقة، لقد نمـت هنـاك وانتهـت القصة. ولكن هل حقاً لم تنتبهوا إلى غيـابي أنـت وبقية "البكّاشين"؟.

- إن أردت الصدق، لم نشعر أنك غبت، لكنـا سـألنا عنك أول المساء ثم ذهبنا إلى المقهى بعد أن قيل لنا أنك عدت إلى البيت. ولكن، لماذا وجهـك ملطـخ بالسواد وكأنك قادم من خيشة فحم؟!.

- حقاً؟!. لم ألاحظ ذلك. ربما كنت نائمًا على رمـاد، هناك الظلام حالك مثل العمى.

وفي طريقه إلى أمه مر بأبواب كثيرة مقفلة، وقطع شوارع عديدة فارغة، وهو يدعك وجهه بأصابعه المبلولة بلعابه لإزالة آثار الفحم التي يقول مسلط أنها تغطيه. من أعلى الجبهة حتى الذقن اندلعت معركة كر وفر بين اللعاب والفحم، وجاست الأصابع بين النتوءات والغضون تدفع بالنهاية إلى ذروتها وتحمل الوجه على الخروج عاريًا من الخديعة. كان يحس بأنامله تحترق تارة بمساحيق فائرة تغطي وجهه، وتارة يلطف اللعاب الحركة والملامسة فتغدو المهمة مريحة وممتعة حتى أنه ليخيل إليه في بعض اللحظات أنه يرى وجهه في أصابعه.

حزم مفرقعات كان اشتراها لساعات مرحه، قايض بها صاحب مطعم يقدم الفول والقلابة في الحارة. كان وعد حوش المساكين بعاصفة هوجاء من المفرقعات والضحك ليلة البارحة، لكنه وجد نفسه هذا الصباح جائعًا في الطريق، فوهبه صاحب المحل صحنًا به ملعقة فول وعليه خبز تميس. بعد ذلك سأله صحاب المحل: أليس ذلك بأفضل من "الطراطيع"؟! أجاب بسرعة: كلا. لأن الفول الذي قدمته لي قليل وبارد والخبز يابس. غبنتني في المقايضة أيها السيد،

إذ بينما تخلصت أنت من بعض الفول البارد والخبز غير الشهي الذي يرفضه الزبائن، أراني مضطرًا لشراء حزم جديدة لأواصل طريقي نحو غايتي. والفول يا سيدي غذاء ثقيل يصيب معدة أمثالي بالتلبك والآلام المبرحة عندما يفسد في صحنه، في حين أن "الطراطيع" تبث مثل العافية في بدني حالما أراها تتفجر بالقرب مني. يضحك صاحب المحل، فيلاحظ حافل أنه لا يضحك وحده بل كرشه الكبيرة تضحك معه أيضًا ويسمعه يقول: الآن صارت العافية في "الطراطيع" بعد أن شبعت من صحن الفول وأكلت خبزًا بكامله! والتقط طبقًا فارغًا ليملؤه بالفول، فيما العرق ينز من نحره وإبطيه. رائحة جسمه الضخم تتجول بالقرب منه وتتمدد أحيانًا إلى الطاولات المجاورة. ولاحظ حافل كذلك أن الوزرة تراجعت إلى ما تحت السرة بفعل اهتزازات الكرش المتلاحقة فبدت تكة السروال داكنة اللون من شدة التصاقها الطويل بأسفل البطن.

توقف عن شرب الشاي، وحوّل بصره ناحية الأفواه القليلة التي راحت في صمت تتسابق في أداء واجبها اليومي بلا اكتراث لما يحدث، يملؤها شغف واحد هو إنهاء المهمة

فحسب. ونظر في كل عين، فرأى نفس المشهد الذي تحملـه العيون الأخرى للمطعم من الداخل. يحدث ذلك بالرغم مـن أن العيون تتحاشى أن يلتقي بعضها بـبعض أثنـاء الأكـل، أو أثناء انتظار الطلب، الغتر المنشأة والعقل والثياب النظيفة كأنها دخلت المطعم لأن أصحابها أرغموها على ذلك، فـي حين يفترض من يراها أنها متجهة إلى مكان واسع يوجد به رقص وأنغام وإطلاق رصاص فـي الهـواء. أو.. إطـلاق صواريخ.. ذلك أفضل، قال حافل فالرصاصة تنطلـق إلـى أعلى لتنطفئ كليًا وتضيع قيمتها في السماء، أو ربما تنطلـق إلى شخص لتقتله، بينما تؤدي الصواريخ عروضـها الحيـة فوق الجميع وهي جذلة تصفر للكبار والصغار على السواء. لكن التجهم، أكد حافل، يدخل المطعم ويخرج منه بـالوجوه ذاتها وبنفس التهذيب الذي يحرك الكراسي بهـدوء ويبقـي الموائد نظيفة. أطباق الفول والقلابة وحـدها التـي، جيئـةً وذهابًا، تفشل في أن تظل صامتة ومتجهمة طـوال الوقـت. أدوات موسيقية تفضحها أصواتها الجميلة كلما انتقلـت مـن مكان إلى آخر. تقع على أسطح الموائد فتصدر رنة مواسـاة للزبون وتهتز أحيانًا بين يديه كراقصـة ملهـى فـي فيلم

مصري. أو تسقط على الأرض بالخطأ لتملأ المكان ضحكًا وتنديدًا بأرجل الطاولات والبشر.

ويهز حافل رأسه مؤيدًا ما خطر على باله في الحال: نعم، يمكنها أن تصحبني إلى حوش المساكين كل هذه الأطباق التي في حوزة صاحب المحل، وهناك ألعب معها لعبة كريمة لم تحدث من قبل. أدعو كل من في الحوش للوليمة بلا استثناء. لأطباق الفول الساخن والخبز الشهي دون مقابل مادي. وبعد أن يفرغوا من الأكل، أجمع الأطباق لأجذل من أصواتها الشجية مهمتي الأخطر التي عليّ أن أنكرها أمام الجميع. سأخبرهم، أن بينهم شخص أعمى. ،أمامهم سوف أعد الأطباق ليقتنعوا باكتشافي حالما أصل إلى طبقي الذي لم آكله. عندها سوف يضطربون، ويسألون طبق من هذا لذي في يده؟. من هو الشخص الأعمى الذي لم يكتشفه جمعنا الحاشد رغم أننا بعيون مفتوحة نظر بعضنا إلى بعض عشرات المرات؟!. أنه أنا، سأصرخ فيهم، ضاربًا بيدي على صدري ليراني القاصي والداني، وليتفرس في عيني من وقف بالقرب مني، وبالطبع، سأصيبهم بصدمة قوية لأنني أمامهم سوف أخرج من جيبي

صاروخًا ثم أشعل فيه النار. بل إنني، إمعانًا في تعميق شعورهم بالصدمة، سأوزع على كل واحد منهم مفرقعة صغيرة، قابضًا بيدي على اليد التي تمتد إلي، واضعًا في راحتها المفرقعة النائمة حتى تلك اللحظة.

ضحك حافل، بعد أن أخذ رشفة من الشاي، ما حدا بصاحب المطعم أن يتوقف عن العمل ويلتفت إليه مستفسرًا عن سبب الضحك الذي جهر به وجهه بغتة؟!. لا شيء قال له. كنت فقط أفكر في أي شيء لأضحك. ولمنع صاحب المطعم من طرح سؤال آخر طلب منه أن يتظاهر بالعمى كلما رآه يتصرف تصرفًا لا يفهمه. غير أن صاحب المطعم مغضبًا، أمره بمغادرة المكان فورًا لئلا يثير سلوكه الغريب ومظهره الرث حفيظة الزبائن، وينفرهم من المحل. هكذا سيكون الحال مع الجمع الحاشد في حوش المساكين الذين بناءً على رغبته جمعهم، وهو يحتسي الشاي، ووزع عليهم أطباق الفول وهو في مكانه داخل المطعم. سيطردونه أيضًا من الحوش، أو على الأقل سيتفرقون عنه متهمينه بالحمق وخفة العقل، إذا لم يشرح لهم لماذا ادعى أنه أعمى في حين أنه في الواقع غير ذلك؟! يعتقد حافل أنه في تلك اللحظة

ستكون الرغبة لديه كبيرة في إعلان الجــزء الثـــاني مـــن اكتشافه وهو أنهم أيضًا عميان. لكنه، إذ تنقصـــه الشـــجاعة لمواجهة العواقب المتوقعة، سيكتفي بشرح ادعائـــه العمـــى بطريقة غير مباشرة.. سيخطب فيهم: إني أراكم، ولكن ماذا أفعل بعادتي السيئة في التعامل مع صواريخي ومفرقعاتي؟! إنني أضعها في جيوبي لأفرقعها هنا وهناك إشباعًا لنزواتي في اللعب والتخيلات، أو أدوس عليها عندما يضطهدني مـــن يملك القوة على مواجهتي واضطهادي، إنني ، في كل مـــرة أفعل ذلك، أردها ظاهرًا إلى رغبتي في حرق الغـــم الـــذي يصيبني بسبب ظلم الآخر لي، بينما، فـــي الحقيقـــة، كـــان يفترض أن أرد السبب إلى رغبتي في إظهار قوتي فقط على الأشياء الصغيرة التي لا تملك الدفاع عن نفسها. فأنا أعمـــى لأنني، من هذا الجانب ومن جوانب أخرى كثيـــرة، لا أرى الأشياء حيث يجب أن تكون ولذلك تأتي أفعالي في الغالـــب وفقًا لرؤيتي الخاطئة، وأنا هنا لا أختلف كثيرًا عمـــن يملـــك القدرة على مواجهتي واضطهادي ولا يتردد في التنكيل بـــي بناء على تبريرات من عنده ورؤى تخصه. ماذا عساي أقول أكثر من ذلك، لأشرح لكم أنكم، في حالتي هـــذه، يمكـــن أن

تكونوا أقوياء وذوي قدرات كبيرة في التكيف مع الحياة، ولكنكم عميانًا ستعيشون طوال حيواتكم، مثلي بالضبط، أو مثل القوى العمياء التي تطحن ما تحتها من أشياء متى ما دعت الحاجة إلى فعل الطحن لتثبت أنها فوقها ما تزال.

فكر حافل في أنه ربما بالغ في تخيل اصطفاف الحشد أمامه، وفي إنصاته له، ليقول مثل هذا الكلام الذي أدهشه أنه قاله. يرجح أن المفرقعات الصغيرة التي وضعها في أيديهم، كما تصور، هي التي نقلته إليه من الراحات ومن الهمسات الخفية ، وليس هو قائله الأصلي. وتساءل: ما الحكمة في أن يتحول الشخص إلى خطيب بعد وجبة فول فاسدة؟!.. ليس من عادته اصطناع البلاغة في الكلام ولا من فضائله حث عضلات لسانه على أداء أفضل من أجل أن يقول أيها الناس. المفرقعات التي وزعها على الحشد، من الطبيعي أن يؤكد حافل بأنها لم تكن من نوع واحد بل من أنواع عديدة كما كان تعود أن يحمل في جيبه المفرقعة العادية من نوع "woodpecker " يمكن أن تمتص العرق من راحة اليد دون أن تفقد قدرتها على الانفجار. يمكن أيضًا أن تدلي لفائفها الورقية بشيء من طبيعة الشخص الذي يحملها بيده

ويغلق عليها أصابعه. صحيح، لها شكل ركيك، بل تبعث هيئتها على الإحساس بأنها ربما صنعت لترمز إلى الفجاجة الخطرة، لكنها بارعة في إخفاء خطورتها في جرمها الضئيل. ومن غير المستبعد أن العصفور نقار الخشب الذي جعلته شعارًا لها إنما رسم عليها ليعبر عن قوة تأثيرها الخفية إذا ما علمنا أن ذلك العصفور يبني عشه داخل جذوع الأشجار حفرًا بمنقاره. أما المفرقعة التي من نوع "butterfly" فإن الشرر الغزير الذي تطلقه عند اشتعالها لاحظ حاقل، أنه يربك العين ويوقعها في فتنة الضوء المتبعثر الذي تستحيل السيطرة عليه. وهي بقدر ما تفعل ذلك، وبقدر ما تتفنن في خلب الأبصار بنوافيرها الضوئية الصغيرة، كأنها، من ناحية أخرى، تقف موقف خطيب أو شاعر في الهواء الطلق انهمك في قول ما لديه. إذًا، لا يستبعد حاقل أن ذلك الكلام الذي تفوه به، وهو يخرج من المطعم، جاء نقلاً عن مفرقعات انغلقت عليها الأكف والتصقت جيدًا بالراحات الرطبة.

وظن هو أنه أبصر شيئًا ما فيما قال. بل أحس أن في الكلمات تلك شيئًا من معاناته بالفعل. تتفجر على يده

المفرقعة لماذا؟! ولماذا في المكان تحدث صوتًا قويًّا، أكبر في مداه وتأثيره على الأذن، من أصوات المفرقعات التي يلهو بها غيره؟! إن من عادته، حالما يمسك بإحدى المفرقعات لينسفها، أن يمررها على أصابعه ، ثم يقفل عليها راحة يده ضاغطًا عليها بقوة؛ ليحس بجسمها وصلابته في باطن كفه قبل أن يحيلها الانفجار إلى أشلاء.

(١٠)

مساءً، حين دقت مقرعة الوقت تمام السابعة، كان الحوش شبه خالٍ من الحركة، وكان من المفترض أن يكون كذلك، نظرًا لتحول الزحام إلى موقع آخر في طرف البلدة حيث ستقام مباراة في كرة القدم، بعد صلاة العشاء، حدثت أشياء رآها البعض ضرورية بمناسبة العرض الكروي المشهود بينما وصفها البعض الآخر بأنها محض خزعبلات لإيهام الناس بأن كل شيء على ما يرام. انتشر الجنود في المنطقة واغتنم طاقم التلفاز الفرصة لربط الشاشة من الخارج بعيون المشاهدين الذين لم تسعفهم حظوظهم بالمجيء، ليروا وقائع الحدث الرياضي الهام، وليشهدوا بسعادة بالغة على مدى التقدم الذي واكب عالم الإعلانات. ومن الداخل، اغتنم طاقم التصوير الفرصة ليعرض للسادة المشاهدين شريطًا حيًّا لوجه من وجوه نهضة البلاد الحضارية في أواخر القرن العشرين. الأضواء الكاشفة المركزة على الوجوه من جهات ثلاث، كانت ضرورية أيضًا، وذلك لإضفاء ألق البطولات على لهيب الحماس الكروي الذي يصم دويه الآذان. المعلق الرياضي أيضًا، ما كان ليغيب بالطبع عن قائمة الأشياء

الضرورية لآلة الميكروفون لتعمل عملها المنتظر فـــي نقــل الحدث بالصوت المفخـــم والأداء التقنـــي المتـــرع بـــالنبرة الاستعلائية للآلة العتيدة.

في مكان آخر، وبعد صلاة العشاء أيضًا، حدثت أمور لم يهمس بها لأحدٍ شاهدُ عيانٍ، إذا ما أن بدأ حافل في إعداد كوب شاي بالزنجبيل لأمه، وكانت قد أمرعت بشرة وجههـــا ببعض الطمأنينة على سلامة ولدها، حتى كانت يد بارعة في الرسم قد انتهت من رسم صورة جديدة على جدار المنـــزل من الخارج. كان الشارع في تلك اللحظات على هيئة أخدود طويل يتجول في العتمة. في الداخل فوجئ حافل بقوة تماسكه الغريب، وعبثًا حاول عزو الأمر إلى احتمال وقوعـــه فـــي أوهام جديدة تجاه ما يحدث له وما يدور حوله. بتاتًـــا، لـــم يتصور أنه يمكنه أن يقف متماسكًا، لما واتاه إحساس جارف بأنه يستطيع أن يرسم فورًا وجه إنسان. بالضبط، كما مـــرر صباح اليوم أصابعه على وجهه وراح يدعكه عظمة، عظمة، ونتوءًا ، نتوءًا وكأنه وجده لتوه، أو كأنه يشكله من جديـــد. لكنه متماسك الروح والأعضاء، وجد نفسه يقف، ويتحـــرك، ويحمل إلى أمه كوب الشاي الساخن، فيراها تمد يـــدها إلـــى

الكوب، ويتأمل وجهها، ويجلس عند قدميها، ويحكي لها قصة طريفة تقول بدايتها، أنه كان هناك شخص وجد نفسه يبحث عن بيته، لكنه قطع مسافات طويلة، وعبر أماكن عديدة، وقابل في النهاية، بعد أن رأى الكثير من البشر والكثير من الأمصار، ما ظن أنه باب بيته فاحتار في أمره وفكر مليًا هل يطرق الباب أم يفتحه ويدخل؟!.

انتهت : يوم الاثنين (٣٠ يونيو ٢٠٠٣)

:السادسة وعشر دقائق مساء

: نفس المدينة.

: نفس المكان.